كوكتيل

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

رواية مصرية للجيب

قارون

وقصص أخرى

30

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

عدد خاص

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليـوم

د. نبيل فاروق

قطرة حب

(قصة قصيرة)

« سن الثلاثين يقترب .. »

قفز هذا الخاطر المفزع إلى رأس (سلوى) ، وهى تصفف شعرها بعناية فائقة كعادتها ، أمام المرآة الكبيرة فى حجرتها ، فى ذلك الصباح المشمس الجميل ..

وفى قلق ليس له ما يبرره ، مالت تلقى نظرة فاحصة على ملامحها ..

ما زالت فاتنة ساحرة كما هى ..

لا تجـاعيد أو جلـدًا داكنًـا ، فـى أى مكـان مـن بشـرتها ، وبخاصة منطقة ما تحت العينين ..

كل صديقاتها يحسدنها فى غيرة ، على حسنها وجمالها ، وشعرها الكستنائى الناعم ، وعينيها العسليتين الناعستين ..

كلهن يجمعن على أنها أكثرهن سحرًا وجاذبية وأناقة ..

ولكن العجيب أنها وحدها لم تتزوَّج بعد ..

جميعهن تزوجن وأنجبن ، قبل أن يبلغن الثامنة والعشرين من العمر ..

أما هى ، جميلة الجميلات ، وساحرة البنات ، ودرة الشلة ، فما زالت كما هى ..

عذراء لم تتزوَّج ..

ولم ترتبط حتى بعلاقة حب قوية ..

كثيرون وقعوا فى غرام أناقتها ، وهوى جمالها ، وسحر فتنتها ..

ولكن قلبها لم يقع فى حب أحدهم قط ..

لم تشعر أبدًا بالحب ..

أو حتى بقطرة منه ..

قطرة حب ..

ولهذا رفضت عشرات العرسان ..

هذا لأنه بدين ..

وذاك لأنه قصير ..

وآخر نحيل ..

ورابع بخيل ..

ويوم بعد يوم ، تناقص عدد المتقدمين ..

وتزايدت سنوات عمرها ..

ثم فجأة ، وجدت نفسها وحدها ..

حضرت أكثر من عشر حفلات زفاف لبنات الشلة ..

وحضرت (سبوع) المواليد أيضًا ..

وفى كل مرة كانت تفتن الكل ..

وتوقع قلبًا جديدًا ..

أو عدة قلوب ..

إلا قلبها هى ..

فبالنسبة إليه دائمًا ، كانت النتيجة : لم ينجح أحد ..

ثم فجأة ، ومن عامين كاملين ، تحوّلت العبارة إلى مضمـون آخر ..

لم يتقدّم أحد ..

والعجيب أنها لم تنتبه إلى هذا فى البداية ..

ولكن أمها فعلت ..

أمها لاحظت أن أحدًا لم يعد يتقدّم لطلب يد ابنتها الجميلـة ، وأبدت قلقها الشديد من هذا ..

ولكنها لم تبال ـ حينذاك ـ أو تهتم ..

فما زالت جميلة ، أنيقة ، وكل صديقاتها ، وحتى أزواجهن يعلنون هذا صراحة ..

وكانت هذه هى البداية ..

أزواج صديقاتها ..

إعجابهم بها ، فى كل حفل أو مناسبة ، أثار غيرة صديقاتهـا وقلقهن ..

ورويدًا رويدًا ، رحن يحففن من ارتباطهن بها ، ويقللـن دعوتها أو زيارتها ..

ومع مرور الوقت ، انقطعت صلاتها بهن أو كادت ..

وبدأت تنتبه للأمر ..

لقد تجاوزت التاسعة والعشرين منذ خمسة أشهر ..

وها هى ذى فى طريقها إلى الثلاثين ..

ويا له من رقم مفزع !!

العشرينات ، فى أية مرحلة منها ، ما زالت تحمـل رنـة الشباب ، ورائحة النضارة ..

ولكن الثلاثينات ليست كذلك أبدًا ..

صحيح أن المرأة تبلغ فيها أوج أنوثتها ونضجها ..

ولكن ليس إذا ظلت عانسًا ، بلا زواج ..

فى هذه الحالة ، تصبح الثلاثينات مرحلة انكسار ، وانحسار ، وانخفاض الفرص إلى الحد الأدنى ..

لذا ، فلابد أن تتزوّج بسرعة ..

وقبل فوات الأوان ..

ولكن كيف ؟!

لقد انقطع سبيل العرسان بغتة ، ولم تعد هناك فرصة واحدة ..

إلا بمصادفة بحتة ..

والعجيب أن هذه المصادفة قد حدثت .

كانت تعاون طفلة صغيرة على عبور الطريق ، وهى فى طريقها إلى النادى ، عندما وقع بصرها عليه ..

كان يقف هناك ، على الرصيف المقابل ، يحدّق فيها بانبهار شديد ، وينقل بصره فى دهشة وإعجاب ، بينها وبين الطفلة الفقيرة ، ذات الثياب الرثة ، وكأنه يتساءل : كيف اجتمع هذا وذاك ؟!

كيف يتعلّق الفقر بيد الحسن والجمال ، على هذا النحو ؟!

ولأوّل مرة فى حياتها ، وجدت نفسها تشعر بخجل شديد ، مع نظرات الانبهار والإعجاب فى عينيه ، ولم تكد تبلغ الرصيف الآخر ، حتى منحت الطفلة الصغيرة جنيهًا ، وأسرعت تدلف إلى النادى فى ارتباك ..

وحاولت أن تطرد كل هذا من ذهنها ..

ولكنها لم تنجح أبدًا ..

ولم تدر لماذا ؟!

إنه لا يشبه ، ولا يمكن أن يشبه فارس الأحلام ، الذى صنعته فى خيالها ، وعاشت معه أجمل أحلامها ..

إنه أصلع ، قصير ، أسمر البشرة ، يرتدى منظارًا طبيًا سميكًا ، وقميصًا لا يتفق قط مع سرواله الواسع ..

ربما هى نظرة الانبهار فى عينيه ، والتى لم تلمح مثلها منذ ما يقرب من العام !

ربما !

المهم أنه هو أيضًا لم يمنحها الفرصة للنسيان ..

لقد فوجئت به داخل النادى ، يحدجها بنفس النظرة المبهورة المسحورة ..

وفى عصبية خجلى ، غمغمت :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

سألتها قريبتها فى حيرة :

ـ ماذا حدث ؟!

أشارت بطرف خفى إليه ، قائلة :

ـ هذا الرجل هناك ، يرمقنى بنظراته منذ ساعة كاملة .

تطلّعت قريبتها إلى الرجل ، قبل أن تهتف ، بكل دهشة الدنيا :

ـ الدكتور (إيهاب) .. مستحيل !

سألتها فى حدة :

ـ ما هو المستحيل ؟!

أجابت قريبتها مبهورة :

ـ الدكتور (إيهاب) هذا أستاذ جامعى ، فى كلية الهندسـة ، وهو رجل وقور رصين للغاية ، و ...

صمتت لحظة ، ثم مالت نحوها ، وضحكت مضيفة :

ـ وأعزب .

تضرّج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تغمغم :

ـ وما شأنى أنا ؟!

ضحكت قريبتها مرة أخرى ، وقالت :

ـ من نظراته هذه ، والتى لم أره يرمى بها أنثى واحدة ، طوال الخمس سنوات الأخيرة ، أعتقد أنه شأنه هو .

ثم عادت تميل نحوها ، مستطردة فى خبث :

ـ وربما أصبح شأنك أيضًا .

تضرّج وجهها بخمرة الخجل والحياء ، وهى تغمغم فى أعماقها :

ـ ذلك الأصلع القصير ؟! مستحيل !

ولكن يبدو أن قريبتها كانت بعيدة النظر بالفعل ..

ففى اليوم التالى مباشرة ، تقدّم الدكتور (إيهاب) لطلب يدها ..

ولقد فاز بإعجاب واحترام والدها ووالدتها وشقيقها على نحو عجيب ، حتى إنهم جميعًا راحوا يمتدحونه بشدة ، ويحثونها على قبول مطلبه ، على الرغم من هيئته ، ومن الحلة السوداء ، التى ارتداها على حذاء بنى اللون ..

ولقد قضت ليلتها كلها تدير الأمر على كل الوجوه ..

إنه أستاذ جامعى ، وأحواله المالية والاجتماعية مناسبة تمامًا ..

ثم إنها لم تعد تحتمل تعامل صديقاتها معها ، وكأنها لصة رجال ، تسعى دومًا لسرقة أزواجهن ، بجمالها وعذوبتها وأناقتها ..

لذا ، فقد قبلت الخطبة ..

وفى الحفل ، الذى أقيم بهذه المناسبة ، كانت تخشى أن يسخر الجميع منه ومن مظهره ، إلا أن أحدًا لم يفعل ، حتى أخبث زميلاتها ، وكأنهن جيعًا قد ارتحن لخطبتها ، حتى تنزاح منافستها عن كواهلهن ..

وبعد الخطبة مباشرة ، ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ..

هل سيمكنها أن تحتمل الدكتور (إيهاب) هذا ؟!

هل يمكنها أن ترسم فى ذهنها صورتهما معًا ، فى حفل الزفاف ؟!

إنه ليس فارس أحلامها ، أو فارس أحلام أية فتاة فى الدنيا ..

هى بالذات كانت تستحق من هو أفضل ..

بكثير ..

ولقد راحت تردد هذا لنفسها طوال الوقت ، حتى لم تعد تطيق رؤيته ..

صحيح أن دبلته ما زالت فى إصبعها ، ولكنها لا تحتمل الجلوس معه ، والتحدث إليه ..

ولا تطيق دعاباته السمجة ، أو مجاملاته السخيفة ..

كل شىء فيه يحنقها ، ويثير توترها وسخطها ..

لن يصبح فارس أحلامها أبداً

أبدًا ..

والواقع أن الرجل كان مهذبًا حنونًا للغاية ..

وكان يبذل قصارى جهده لإسعادها ، وخطب ودها ..

ولكنها كانت تستقبل كل هذا بجفاء وبرود عجيبين ، وفى كل مناسبة تصرّ على تذكيره بأنها جميلة الجميلات ، وبأنه كان باستطاعتها الفوز بزوج أفضل منه بكثير ..

والعجيب أنه كان يحتمل ..

ويحتمل ..

ويحتمل ..

ومن جانبها ، كانت تفعل كل هذا بمنتهى الثقة ؛ لأنها تدرك تمامًا أنه لن يترك فرصة كهذه ، ولن يتخلى عن فاتنة مثلها ، مهما قالت أو فعلت ..

لهذا كانت الصدمة عنيفة ..

فذات ليلة ، كانا مدعوين لحضور حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتها ، عندما حضر لاصطحابها ، مرتديًا حلة بنية اللون ، وحذاء أسود ، وجورب أبيض ، ورباط عنق أزرق ..

وهنا ، وجدت نفسها تنفجر فيه ، بكل غضبها وحنقها ، صائحة :

ـ ما هذا الذى ترتديه ؟! هل تريد أن تصبح أضحوكة الجميع ؟! هل تريدهم أن يسخروا منى ؛ لأننى تزوجت شخصًا لا يدرك حتى كيف يرتدى ثيابه ؟! هل تحب أن ..

فوجئت به يقاطعها فجأة بحدة :

ـ كفى يا (سلوى) .. كفى ..

حدقت فى وجهه بمنتهى الدهشة ، وكأنها لم تتصور أبدًا أنه قادر على الغضب والثورة ، فى حين تابع هو بنفس الحدة :

ـ لا تتحدثى معى أبدًا بهذا الأسلوب .. لقد احتملت عجرفتك ، وغرورك وزهوك بنفسك طويلاً على أمل أن تنضج مشاعرك ، وتهدأ انفعالاتك ، وتدركى أن الله (سبحانه وتعالى) قد جعل الزواج مودة ورحمة ، وليس صراعًا لإثبات الوجود وتأكيد الذات ..

كانت تشعر بارتباك شديد ، أمام ثورته المباغتة ، إلا أن عنادها وغرورها جعلاها تندفع قائلة :

ـ أنا أيضًا احتملت ذوقك الفاسد فى ..

قاطعها بحدة أكثر :

ـ مسألة الذوق هذه حجة سخيفة وتافهة ، فقد كان بإمكانك توجيه النصح لى ، أو اختيار ملابسى ، أو تعليمى الاهتمام بالمظهر ، وكنت سأستمع إليك جيدًا ، وأبذل قصارى جهدى لتنفيذ هذا ، على الرغم من اقتناعى الشديد بأن الجوهر أكثر أهمية من المظهر .. ولكن لا ضرر من جمع الحسنيين .. كنت سأفعل كل ما يمكن أن يرضيك ، لو ...

بتر عبارته بغتة ، وتطلع إليها بتأثر كبير ، قبل أن يضيف بصوت متهدج :

ـ لو أنك حملت لى فى قلبك قطرة حب واحدة .

واتسعت عيناه ، وهى تحدق فيه بدهشة ..

لماذا اختار هذا المصطلح بالذات ؟!

لماذا (قطرة حب) ؟!

إنها لم تنطقه أمامه قط !!

فمن أى مكان فى كيانها انتزعه ؟!

وبكل مرارة الدنيا ، تابع (إيهاب) :

ـ لو أن قلبك حمل قطرة واحدة من الحب تجاهى ، لأمكنك تجاوز كل هذا ، والنظر إلى أى شىء جيِّد فى حياتى ، أو شخصيتى ، أو تكوينى .. ولكن من الواضح أن هذه القطرة مفقـودة ، حتـى إننى أتساءل لماذا وافقت على خطبتى ، لو أنك تبغضيننى على هذا النحو ؟!

دفعها العناد إلى أن تقول فى حدة :

سل نفسك أوَّلاً ، لمـاذا هرعت لخطبتى ؟! لقد بهرك جمـالى وسحرى ، وخلبت لبك أناقتى و ...

قاطعها بدهشة كبيرة :

ـ جمالك وسحرك وأناقتك ؟! ما الذى جعلك تتصوَّرين هذا ؟!

هتفت :

ـ هل تنكر هذا ؟! هل تنكر أنك قد انبهرت بى .

أجابها بدهشة أكبر :

ـ لقد انبهرت بالفعل ، ولكن ليس بجمالك وسحرك وأناقتك .

هتفت بعصبية شديدة :

ـ كاذب .

ولكنه تابع فى مرارة :

ـ إننى أشاهد كل هذا فى النادى ، منذ عدة سنوات .. أشاهد الجمال والسحر والأناقة فى العديدات .. وفيك بالذات ، دون أن يثير هذا اهتمامى لحظة واحدة .

حـاولت أن تبدو صلبـة عنيـدة ، ولكنهـا فوجئـت بصوتهـا يتخاذل ، وهى تسأله :

ـ لماذا كنت مبهورًا إذن ؟!

هزَّ رأسه ، وهو يجيب فى تأثُّر شديد :

ـ كنت مبهورًا بعطفك وحنانك ورقة مشاعرك ، عندما عاونت طفلة فقيرة رثَّة الثياب ، على عبور الطريق ، علـى الرغم من جمالك وأناقتك .. قليلات هنَّ من يفعلن هذا .. قليلات هن من يتمتعن بقلب ناصع البياض ، وروح بسيطة كروحـك ، علـى الرغم مما يدفعك إليه الشيطان أحيانًا ، من غرور وغطرسة ، لا تناسبان أعماقك الحقيقية ..

ولأوَّل مرة فى حياتها ، وجدت قلبها ينتفض بين ضلوعها فى عنف ..

أحقًّا ما يقول ؟!

أهذا ما بهره منها بالفعل ؟!

العطف والحنان ، ورقة المشاعر ؟!

« لن يمكننى الاستمرار يا (سلوى) .. »

حدَّقت فى وجهه بذعر ، وهو يواصل :

ـ لن يمكننى المضى ، ما دمت قد فشلت فى زرع قطرة حب واحدة فى قلبك .. لن يمكننى إكمال طريق ، بدأ بحاجز هائل كهذا .

وبأصابع مرتجفة ، انتزع دبلتها من إصبعه ، ووضعها فى راحتها ، وهو يضغط يدها بحنان دافق ، قائلاً ، بصوت حمل حزنًا بلا حدود :

ـ أبلغي اعتذارى لوالدك ووالدتك وشقيقك .. أخبريهم أننى كنت شخصًا فظًا سيئًا ، ولم يمكنك الاستمرار معى .. أخبرى الجميع أيضًا أنك أنت فسخت خطبتنا ، حفاظًا على سمعتك ومظهرك ، ولكن احتفظى بالشبكة ، لأننى أنا المسئول عما حدث ، وسيظل هذا سرًا بيننا .. أقسم أن أحدًا لن يعلم به أبدًا ..

وتراقصت الكلمات على شفتيه ، مع الدمع الذى ترقرق فى عينيه ، وهو يتمتم :

ـ الوداع يا (سلوى) .. صدقينى .. لن أنساك أبدًا .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، ولم تتحرك من مكانها خطوة واحدة ، وهو يغادر المنزل فى صمت ، ويغلق الباب خلفه فى هدوء شديد ، وكأنما يخشى أن يزعجها بصوته ..

ولم تذهب إلى حفل عيد الميلاد ..

بل ولم تخبر أسرتها حتى بما حدث ..

لقد ظلَّت يدها مطبقة على دبلته طوال الوقت ، وكأنما تخشى أن تفتح أصابعها ، فتنفلت منها ، كما أفلت هو ..

ولأوَّل مرَّة منذ عرفته ، راحت تستعيد كل أفعاله وتصرفاته معها ..

كل حبه ..

وحنانه ..

ودفئه ..

واحتماله ..

ودون أن تدرى ، وجدت دموعها تغرق عينيها ..

وشعرت بقلبها يخفق ..

ويرتجف ..

ويبكى ..

وفى أعماقه انسابت تلك القطرة ..

قطرة الحب ..

ودون أن تتردَّد لحظة واحدة ، وعلى الرغم من أن عقارب الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل ، طلبت رقم منزله ..

وما إن سمعت صوتـه ، حتى رقص قلبها بين ضلوعها ، وارتجفت الكلمات على شفتيها الجميلتين ، وهى تقول بكل حـب ودفء وحنان الدنيا :

ـ (إيهاب) .. أنا آسفة ..

سمعته يهتف ، بكل دهشة وفرحة الدنيا :

ـ (سلوى) ؟!

انهمرت دموعها مرة أخرى ، وهى تقول بنفـس الـدفء والحب والحنان :

ـ تعال .. أنا أريدك .

هتف بصوت حمل قدرًا من السعادة ، يكفى العالم كله :

ـ افتحى الباب يا (سلوى) .. حتى لا أخترقه من فرط سرعتى.

أنهت المحادثة ، وقفزت إلى دولاب ملابسها ؛ لتنتقى أجمل أثوابها من أجله ..

من أجله وحده ..

وفى أعمق أعماق قلبها ، راحت تلك القطرة تتحوَّل إلى نهـر متدفِّق ..

نهر من الحب ..

بلا حدود .

★ ★ ★

دليـــل .. (قصة قصيرة)

« (أيمن منصور) .. ضابط مباحث القسم .. »

شددت قامتى ، ومنحت صوتى كل حزم وصرامة الدنيا ، وأنا أقدِّم نفسى لتلك الراقصة ، ذات السنوات الثلاثين ، التى غمرت وجهها بمحتويات متجر كامل من مساحيق التجميل وأدوات الزينة ، فى محاولة لإخفاء تجعيدات مبكرة ، نشأت من الإسراف فى السهر والابتذال وتناول المشروبات الروحية ، وعوامل أخرى عديدة ، لا مجال هنا لذكرها ..

ولقد أفلح أسلوبى بالتأكيد ، فلقد حدَّقت فى وجهى بضع لحظات فى حذر قلق ، قبل أن تقول فى شىء من العصبية :

ـ إننى أرتدى زيًا قانونيًا ، ولا أتجاوز الـ ..

قاطعتها بنفس الصرامة :

ـ لا شأن لى بشرطة الآداب .

سألتنى فى حذر أكبر :

ـ ماذا تريد إذن ؟!

أدرت بصرى إلى ذلك الضخم الذى يرافقها ، والذى بدا عليه مزيج من الشراسة والبلاهة ، وأنا أجيب :

ـ أنا هنا للتحقيق فى الحادث .

شحب وجهها ، وامتقع ، وزاغت عيناها ، فى حين انعقد حاجبا الضخم ، وهو يتطلَّع إليها فى قلق شديد ، قبل أن يسألنى فى خشونة :

ـ هل يمكننى الاطلاع على هويتك الرسمية ؟!

لم يكن هذا مطلبًا مألوفًا ، فالكل يصاب بالرعب عادة ، عندما أبدأ فى التحقيق معه ، ولم يكن من التقليدى أو المعتاد ، فى (مصر) بالذات ، أن يؤكد ضابط المباحث هويته ، إلا أننى ، وعلى الرغم من هذا ، أخرجت هويتى الرسمية ، وواجهته بها ، قائلا فى شراسة تنافس شراسته :

ـ ها هى ذى .. ألديك أية شكوك أو اعتراضات الآن ؟!

التقط الهوية ، وحدّق فيها ببلاهة عجيبة ، فتجاهلته أنا تمامًا ، وأنا أسأل الراقصة فى صرامة متحدية :

ـ سمعت أن لديك ما يفيد التحقيق .. أهذا صحيح ؟!

انكمشت فى مكانها ، وهى تسأل :

ـ من أخبرك بهذا ؟!

ملت نحوها ، قائلاً فى حدة :

ـ أنت تعلمين من أخبرنى .

ازدردت لعابها فى صعوبة ، وتطلّعت إلى الأبله الضخم ، وكأنما تسأله المشورة ، إلا أنه أجابها بنظرة باردة غبية ، فغمغمت :

ـ الواقع أن موت (سميرة) جاء مفاجئًا لنا جميعًا ، فهى راقصة ناجحة ، ولها علاقات واتصالات قوية ، والكل هنا كانوا يحبونها ؛ لأنها تغمرهم بكل الحب والعطف والحنان ، و ...

قاطعتها فى ضجر صارم :

ـ ماذا لديك بالضبط ؟!

تلفّتت حولها ، وكأنها تخشى أن يسمعها أحد ، ثم مالت نحوى ، هامسة :

ـ يقولون أنها كانت على علاقة سرية بأحد الضباط ، وأن ذلك الضابط هو الذى ..

لم أكن أرغب فى سماع ما تقوله ، فعدت أقاطعها بصرامة شرسة :

ـ قلت ماذا لديك ؟!

عادت تتلفّت حولها ، وتتطلّع فى رعب إلى الضخم ، الذى أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يرمقنى بنظرة حادة ، فازدردت هى لعابها مرة أخرى ، فى صعوبة أكثر ، قبل أن تهمس بصوت شديد الخفوت ، حتى إننى ميزت كلماته فى عسر :

ـ أعتقد أن قاتلها قد ترك شيئًا ما خلفه .. شيئًا لم ينتبه إليه .

غمغم الضخم بصوت خشن :

ـ المجرم يترك دائمًا دليلاً خلفه .

رمقته بنظرة صارمة ساخرة ، تطالبه بأن يطبق شفتيه ، قبل أن أقطع لسانه القذر ..

من يتصوّر نفسه ، هذا العجل التافه ، حتى يردّد ما لا يفهم كالببغاء ؟!

ما له هو بالأدلة وتفنيدها ؟!

الشىء الوحيد ، الذى يمكن أن يفهمه ويستوعبه أمثاله هو القوة ..

ولهذا فهم نظرتى الصارمة ، وتراجع خطوة مستسلمًا وخائفًا ، فاستدرت إلى الراقصة ، أسألها فى خشونة :

ـ ما الذى تركه خلفه ؟!

مالت نحوى ، قائلة فى خفوت متوتر :

ـ دليل إدانته .

هى أيضًا تتحدَّث عن الأدلة !

ماذا أصاب الكل ؟!

لماذا يتصوَّرون أنهم أبرع وأذكى وأفضل منا ، نحن رجال الشرطة ؟!

من المؤكَّد أنها تلك الروايات البوليسية الرخيصة ، التى يدمنون قراءتها ، والتى يبدو فيها رجل الشرطة وكأنه آخر من يعلم ، وآخر من يصل إلى مسرح الأحداث ، بعد أن يكون البطل الوسيم قد هزم الأشرار ، وفاز بقلب البطلة الحسناء ..

يا للسخافة !

وبمنتهى الغلظة والخشونة ، سألتها :

ـ وأين ذلك الدليل ؟!

تلفَّتت حولها مرة أخرى ، بذلك الأسلوب المستفز ، ثم حلَّت حزامها السخيف ، وأدارت حليته دورتين ، ثم أخرجت من تجويف خفى فيه دبلة ذهبية صغيرة ..

وفى حماس عجيب ، وضعت تلك الدبلة أمام عينىَّ ، قائلة :

ـ انظر .. إنها دبلة (سميرة) ، التى كانت ترتديها باستمرار ، والتى تميِّزها تلك الماسة فى أعلاها ، والتى تجعلها شبيهة بالخاتم .. الكل يعلم أنها هدية من صديقها الضابط .

سألتها فى حذر ، وأنا أتأمَّل تلك الدبلة الذهبية فى إمعان :

ـ وماذا فى هذا ؟!

تألَّقت عيناها ، وتضاعف حماسها على نحو ملحوظ ، وهى تجيب :

ـ لقد نقشت اسمه داخلها .

اتسعت عيناى فى دهشة ، وأنا أحدِّق فى الاسم المنقوش داخل الدبلة الذهبية المميَّزة ..

(أحمد) ..

فقط (أحمد) ..

مددت يدى لأتناول الدبلة منها ، لكنها تراجعت فى سرعة ، هاتفة :

ـ كم ستدفعون ثمنًا لها ؟!

سألتها فى دهشة مستنكرة :

ثمنًا لماذا ؟!

أجابتنى فى شراسة :

ـ للدبلة .. الدليل .. هل ستحصلون عليه هكذا ؟! مجانًا ؟!

تفجَّر الغضب فى أعماقى ، وأنا أصرخ فى وجهها :

ـ هل جننت يا امرأة ؟! إنه دليل رسمى .. وثيقة حكومية ، لا يمكنك رفض تسليمها ، أو بيعها لأحد ، ويمكننى أن ألقى القبض عليك الآن ، وألقى بك فى السجن بلا رحمة ، بتهمة إعاقة سير العدالة .

بدا عليها قلق مذعور ، وهى تقول :

ـ عندى محام جهبذ .

قلت بشراسة مخيفة :

ـ القانون هو القانون .

وهتف بها الضخم فى عصبية :

ـ أعطيه الدبلة .. هيا .

ترددت لحظة ، ثم لم تلبث أن ناولتنى إياها ، مغمغمة فى حنق :

ـ كان ينبغى أن تدفعوا ثمنها .

أطبقت أصابعى على الدبلة الذهبية فى قوة ، وقلبى يخفق فى عنف ، فى حين سألنى الضخم فى عصبية أكثر :

ـ والآن .. هل حصلت على ما تبتغيه أيها الضابط ؟!

أجبته فى خفوت :

ـ ليس بعد .

اتسعت عيونهما فى ذعر وارتياع ، عندما سحبت مسدسى ، قبل أن تكتمل كلمتى ، وصوَّبته إليهما ..

وبكل هلع الدنيا ، هتفت الراقصة :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

ولم أهتم بإجابة سؤالها ..

فقط ضغطت زناد مسدسى مرتين ..

وعبـر كاتم الصـوت ، الذى دفعت ثمنًا ضـخمًا ، خـرجت الرصاصتان ..

وسقطت الراقصة ..

ثم أعقبها ذلك الضخم الأبله ، الذى حدَّق فى وجهى لحظـة ، بذهول مذعور ، ثم سقط كالبرميل الفارغ على وجهه ..

وبسرعة ، أخرجت منديلى ، ومسحت بصماتى عن المسدس ، ثم وضعته فى قبضته ..

وغادرت المكان كالصاروخ ، وأنا أقبض على الدبلة الذهبيـة بكل قوتى ..

كانت تحمل اسمى الأوَّل فحسب .. (أحمد) ..

ولكننى كضابط مباحث ، كنت أعلم أن هذا سيكفى ..

الكل يعلم أن الراقصـة (سميرة) كان لهـا صـديق من ضباط الشرطة ..

ودبلتها تحمل الاسم الأوَّل له ..

وهذا طرف خيط ممتاز ..

ودليل يكفى أى ضابط مباحث ذكى ..

أنا نفسى يمكننى التوصُّل إلى القاتل ، خلال أسبوع واحد ..

وخاصة بعد أن يكشف الطبيب الشرعى أن (سميرة) كـانت تحمل ابنى فى رحمها ..

ولهذا بالذات ، اضطررت لقتلها ..

ما كان ينبغى لها أبدًا أن تبلغ هذا الحد ..

لقد حذرتها ألف مرَّة ..

ولكن هكذا طبقتها ..

أغبياء ..

حمقى ..

وطموحون ..

أما أنا ، فمن فئة مختلفة تمامًا ..

لقد أعددت كل شىء بدقة مدهشة ، مستغلاً كل ذكائى وبراعتى وخبراتى ..

وقتلت (سميرة) ..

وبعد أن عجز الكل عن التوصّل إلى شىء ـ أى شىء ـ فوجئت بقصة الدليل هذه ..

(سميرة) كانت تخفى عنى الكثير ..

ولكن كل شىء انتهى الآن ..

من حسن حظى أن تلك الراقصة الحقيرة قد أخفت الدليل ، متصوّرة أنه بإمكانها بيعه لمن يدفع الثمن ..

جاهلة ..

حمقاء ..

من حسن طالعى ..

ولقد أعددت الأمر بمنتهى الدقة ، هذه المرة أيضًا ..

مسدس مجهول المصدر ، وكاتم صوت قديم ، وزيارة لم يعلم بها مخلوق واحد ..

فى هذه المرة لا أثر ..

ولا دليل ..

وبكل الثقة والهدوء ، عدت إلى منزلى ، واغتسلت ، ثم جمعت كل ما كنت أرتديه فى كيس كبير ، حتى أتخلّص منه تمامًا ..

الخبرة علمتنى أن قطرة دم واحدة ، يمكن أن تفسد خطة محكمة بأكملها ..

والدقة الشديدة مطلوبة ، فى مثل هذا الموقف ، و ...

وفجأة ، دقّ جرس الباب ..

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف ، بعد منتصف الليل ، وأنا أقيم وحدى ، ولم يعتد أحد زيارتى ، فى هذه الساعة المتأخرة ..

وفى حذر ، اكتسبته مع العمل والخبرة ، سحبت مسدسى ، وأنا أسأل :

ـ من الطارق ؟!

أتانى صوت أعرفه وأحفظه جيّدًا ، يجيب :

ـ إنه أنا يا (أحمد) .. افتح .

أسرعت أفتح الباب ، وأنا أهتف فى دهشة :

ـ سيادة اللواء (ناصر) .. أى

بترت عبارتى بغتة ، وأنا أحدّق فى مدير المباحث الجنائية ، والضباط الثلاثة المصاحبين له ، فأزاحنى هو عن الطريق فى صرامة ، ودلف إلى المكان ، وأشار إلى الضباط الثلاثة إشارة أعرفها جيدًا بحكم عملى ، فأسرع أحدهم ينتزع منى مسدسى ، فى حين وقف الثانى أمام الباب فى حزم ، واندفع الثالث ليختفى داخل الشقة ، فهتفت فى عصبية :

ـ ماذا حدث ؟!

رمقنى اللواء (ناصر) بنظرة غاضبة صارمة ، وهو يقول :

ـ لمـاذا فعلت هذا ؟! لمـاذا قضيت على مستقبلك بهذه البشاعة ؟!

اتسعت عينـاى فـى ارتيـاع ، وتراجعـت بحـدة وعنـف كالمصعوق ، وأنا أهتف :

ـ أنا ؟!

وبسرعة البرق ، راح عقلى يستعيد كل ما حدث ..

مستحيل أن يكون هناك خطأ واحد !

أو حتى دليل واحد ..

لقد نفذت العملية بمنتهى الدقة ..

فكيف انكشف أمرى بهذه السرعة ؟!

أمن المحتمل أن يكون أحدهما قد بقى على قيد الحياة ؟!

مستحيل !

لقد أطلقت النار على رأسيهما مباشرة ..

وأقسم إننى قد شاهدت جزءًا من مخ تلك الراقصة ، قبل أن أنصرف ..

كيف انكشف أمرى إذن بهذه السرعة ؟!

كيف ؟!

« المجرم يترك خلفه حتمًا دليل إدانته .. إنها قاعدة ثابتة ومؤكدة .. »

نطق اللواء (ناصر) العبارة فى صرامة ، وهو يتطلّع إلىّ غاضبًا ، فحدّقت فى وجهه بصمت حائر ..

أى دليل يتحدّث عنه ؟!

إننى لم أترك خلفى أى دليل !

على الأقل لا شىء يمكن أن يقودهم إلىّ بهذه السرعة !

« والدليل الذى تركته خلفك كان أوضح مما ينبغى » ..

تلاشت فجـأة كل مشاعر الخوف من أعماقى ، مع عبارة اللـواء (نـاصر) الأخيرة هذه ، وحلّ محلها فضول شـديد ، لمعرفة ذلك الدليل ..

وفى بطء ، وضع اللواء (ناصر) يده فى جيبه ، ثم أخرجها بالدليل ..

وكدت أسقط فاقد الوعى ، وأنا أحدّق فيه ..

لقد كان بالفعل دليلاً أوضح مما ينبغى ..

هويتى الرسمية ..

تلك الهوية التى أعطيتها لذلك الفحل الغبى ..

والتى نسيت أن أستعيدها منه بعد أن قتلته ..

وانهار كل شىء فى أعماقى ، وزملائى يضعون القيود المعدنية فى معصمىَّ ، ويقودوننى إلى الخارج ، وأحدهم يحمل ذلك الكيس الكبير ، الذى يحوى ملابسى ، وعليها حتمًا ولو نقطة دم واحدة ..

يبدو أن ذلك الفحل الأحمق كان على حق ..

المجرم يترك خلفه حتمًا دليل إدانته ..

أى دليل .

★ ★ ★

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

رجل العدالة

نجمة الصباح

قصة كاملة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٨٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٣٧٠٠٢

شق رنين الهاتف سكون حجرة نوم مفتش الأمن العام (هاشم همام) قبيل الفجر بنصف الساعة تقريبًا ، وامتدت يد (هاشم) فى تكاسل ، تنتزع سمّاعة الهاتف ، وتمتم فى صوت لم يُفارقه النعاس بعد :

ـ هنا منزل المفتش (هاشم) ، وهذا تسجيل و ...

قاطعه صوت زميله (يحيى) فى حدة :

ـ دعك من هذا يا (هاشم) .. إنه أنا (يحيى) ، وأنا أعلم أنك لا تستخدم هاتفًا مزودًا بجهاز تسجيل المحادثات ..

زفر (هاشم) فى حنق ، واعتدل جالسًا على طرف فراشه ، وفرك عينيه فى تراخ ، مغمغمًا :

ـ حسن .. ماذا هناك ؟ هل نفد صبر المشرف العام ، يا صديقى .. أم ؟

قاطعه (يحيى) فى صوت يحمل رنة انفعال واضحة :

ـ لقد سرقوا (نجمة الصباح) ..

قفز الخمول والتراخى دفعة واحدة من رأس (هاشم) وقفز هو نفسه واقفًا ، وهو يهتف فى ذهول :

ـ سرقوا ماذا ؟

كرَّر (يحيى) :

ـ سرقوا نجمة الصباح يا (هاشم) .. سرقوها على الرغم من كل احتياطات الأمن .. إننى أتحدث إليك من المتحف .. لقد كشفوا أمر السرقة منذ نصف الساعة فقط ، و ..

قاطعه (هاشم) فى انفعال :

ـ أنا فى طريقى إليك ..

لم يدر كيف ارتدى ثيابه بكل هذه السرعة ، ولا كيف هبط إلى حيث سيارته ، وانطلق بها هكذا ..

كان الخبر مذهلاً بحق ..

إنه لم يتصوَّر أبدًا إمكانية سرقة (نجمة الصباح) تلك الماسة الضخمة ، التى تعد من أكبر قطع الماس فى العالم كله ، والتى يبلغ ثمنها عشرين مليونًا من الدولارات على الأقل ، والتى أحاطها متحف المدينة بإجراءات أمن فائقة التشدّد ، فى الفترة التى تقرر عرضها فيه ، والتى تنتهى مساء الغد ..

لقد تم وضع الماسة فى قاعة خاصة ، وعلى منصة مستديرة من المرمر ، يبلغ ارتفاعها مترًا واحدًا ، وتحيط بها دائرة من الخلايا الضوئية ، يكفى لمس شعاع ضوئى واحد منها ، لتنطلق صفارات الإنذار فى المكان كله ، وتهبط أبواب معدنية فى سرعة فائقة فتحيل قاعة الماسة إلى سجن محكم ..

ولتلك القاعة ثلاثة أبواب ، تُغلق ليلاً بحاجز من الأشعة دون الحمراء ، ولأشعة الليزر القاتلة ، التى يتم التحكم فيها عبر شبكة كمبيوتر خاصة ، بحيث يتم تحديد أى هدف يمر عبر حاجز الأشعة دون الحمراء وإمطاره بأشعة الليزر القاتلة فى جزء من الثانية .

وأرضية القاعة نفسها من نوع خاص يكفى أن تطأه قدم طفل صغير ، بعد انتهاء مواعيد العرض بالمتحف ، لإشعال جهاز إنذار خاص ، يغلق نفس الأبواب المعدنية ..

أضف إلى هذا آلات التصوير التليفزيونية ، التى تراقب الماسة ليل نهار ..

باختصار ، كانت (نجمة الصباح) فى حصن حصين ، يجعل سرقتها مستحيلة ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد سرقها أحدهم ..

تضاعفت حيرة (هاشم) وهو يسترجع إجراءات الأمن مرات ومرات ، وبدا له أن الأمر أشبه بمزحة سخيفة ، وأن أحدًا لم يسرق (نجمة الصباح) بالفعل ، ولكنه لم يكد يبلغ المتحف ، ويقف داخل القاعة الحصينة ، حتى تلاشت تلك الفكرة من رأسه ، مع صوت زميله (يحيى) ، وهو يُشير إلى المنصة المرمرية الخالية ، قائلاً فى حيرة :

ـ لقد اختفت .. كانت كل وسائل الأمن تعمل بكفاءة تامة طيلة الوقت ، ولكن (نجمة الصباح) اختفت ..

سأله (هاشم) فى اهتمام :

ـ كيف يا (يحيى) ؟ كيف ومتى اختفت (نجمة الصباح) ؟

أجابه (يحيى) :

ـ لقد استجوبت طاقم الحراسة والأمن فى المتحف ، وهو يتكوّن من حارسين داخل المتحف وآخرين مهمتهما مراقبة الشاشات التليفزيونية ، فى حجرة خاصة بالطابق الثانى ، ولقد أجمعوا على أن (نجمة الصباح) كانت فى موضعها ، حتى موعد تبديل الحراسة ، فى الرابعة صباحًا .

سأله هاشم :

ـ وماذا حدث حيذاك ؟

لوَّح (يحيى) بكفيه ، قائلاً :

ـ لقد اختفت .

سأله فى حدة :

ـ كيف ؟ هذا هو ما أسألك عنه !

مطَّ (يحيى) شفتيه ، وقلب كفيه فى حيرة ، وهو يقول :

ـ لا أحد يدرى .. لقد تم تبديل طاقمى الحراسة فى دقيقة واحدة فقط ، ولم يكد الطاقم الجديد يبدأ عمله ، حتى كشف اختفاء الماسة .

عقد (هاشم) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا غير منطقى ، وغير مقبول .. من المستحيل أن يتجاوز مخلوق بشرى كل حواجز الأمن ، ويسرق (نجمة الصباح) ثم يبادر بالفرار ، خلال دقيقة واحدة فقط ..

قلب (يحيى) كفيه مرة أخرى وقال :

ـ ولكن هذا ما أجمع عليه طاقم الحراسة .

بدت علائم التفكير العميق على وجه (هاشم) ، وأعلنت عن نفسها فى صمته الطويل ، وفى تلك الحركة التقليدية ، التى يستخدمها كلّما اشتدت حيرته إزاء أمر ما ، فيحك أرنبه أنفه بسبّابته فى بطء ورتابة ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ مستحيل ! هناك أمر خاطئ فى هذه السرقة يا (يحيى) .

سأله (يحيى) فى لهفة :

ـ ما هو ؟

هزّ (هاشم) رأسه ، قائلاً :

ـ لست أدرى ، هذا ما أبحث عنه .

قال (يحيى) فى إحباط :

ـ ولكن الحراس الأربعة قالوا ..

قاطعه (هاشم) :

ـ إنه أحد الاحتمالات ، التى تملأ ذهنى .

سأله فى دهشة :

ـ أى احتمال هذا ؟

اشتعلت عينا (هاشم) ببريق الحزم ، وهو يقول :

ـ أن يكون الحرّاس الأربعة هم بُغيتنا .. وأنها عصابة يا رجل .. عصابة من أربعة من رجال الحراسة ..

وكانت مفاجأة حقيقية لـ (يحيى) ، الذى حدّق فى وجه (هاشم) فى دهشة ، قبل أن يهز رأسه فى عنف ، هاتفًا :

ـ لا يا (هاشم) .. يمكنك استبعاد هذا الاحتمال ، فنحن ننتقى رجال الحراسة ، بدقة تامة ، ثم إن توزيعهم يتم عشوائيًا ، على نحو يصعب معه اتفاقهم على أمر بالغ الخطورة كهذا ..

بدا الضيق على وجه (هاشم) ، وهو يحك أرنبة أنفه بسبّابته ، مغمغمًا :

ـ إنك تجعل الأمر أكثر صعوبة يا (يحيى) .

وعاد يدير عينيه فى المكان ، وهو يتمتم فى خفوت ، وكأنما يتحدث إلى نفسه :

ـ إذن فنحن أمام جريمة متقنة ومحكمة للغاية ، قام بها شخص من خارج المكان ، ونجح خلال دقيقة واحدة فقط فى اختراق حواجز أمن رهيبة ، يؤكد صانعوها أنه يستحيل اختراقها بأية مقاييس ، و ..

بتر عبارته بغتة ، وعاد إلى التفكير العميق ، ثم رفع رأسه فى حدة ، وقال :

ـ قل لى ، كم رجلاً يمكنه الاقتراب من (نجمة الصباح) ، دون رقابة ؟

هزّ (يحيى) رأسه ، وهو يقول :

ـ لا أحد .

هتف (هاشم) فى دهشة :

ـ مطلقًا ؟!

عقد (هاشم) حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ حسن .. أريد قائمة بكل العاملين فى المكان ، وبخاصة المشرفين على رعاية (نجمة الصباح) ، ووسائل الأمن المحيطة بها ..

جاءه صوت من خلفه ، يقول :

ـ إنه أمر أبسط مما تتصوّر .

التفت (هاشم) إلى صاحب الصوت فى هدوء ، ووقع بصره على رجل متين البنيان ، حاد النظرات ، يرتدى زى حراس أمن المتحف ، وإن أُضيف إلى زيه بالذات مستطيل أحمر يزين جيب السترة الأيسر ، وقبل أن يلقى (هاشم) سؤالاً واحدًا ، أسرع (يحيى) يقول :

ـ هذا الرجل هو أخطر مسئول فى المتحف .. أخطرهم على الإطلاق .

ابتسم ذلك الرجل ، الـذى وصفه (يحيى) بـأخطر مسئولى المتحف ، فى حين راح (يحيى) يستطرد :

ـ العقيد (مختار) .. قائد حرس المتحف .

درس (هاشم) العقيد (مختار) ، قائد حرس المتحف ، بنظرة فاحصة سريعة ، وسأله فى هدوء :

ـ حسن .. لماذا تعتبر الحصول على القائمة أمرًا سهلاً للغاية ؟

هزّ العقيد (مختار) كتفيه ، وقال :

ـ لأن عدد المسئولين عن (نجمة الصباح) لا يتجاوز الأربعة .. أنا ، والسيد (فتحى) مدير المتحف ، و (رشوان) خبير الماس ، و (نادر) المهندس المسئول عن أجهزة الأمن ، وهو خبير بالإلكترونيات ..

ثم ضاقت عيناه ، وهو يقول بلهجة استفزازية :

ـ ولكن لماذا تسأل عن المسئولين بالذات ؟

أشار (هاشم) إلى القاعدة المرمرية الخالية ، وهو يقول :

ـ لأن الأسلوب الذى اختفت به (نجمة الصباح) يعنى بالضرورة أن اختفاءها قد تم بوساطة أحدكم .

حدّق (مختار) فى وجهه لحظة ، قبل أن يهتف فى غضب :

ـ كيف تجرؤ ؟

وبصورة غريزية ، امتدت يده نحو المسدس المعلق بحزامه ، وانتزاعه فى عنف ، وصوّبه نحو (هاشم) ..

وبسرعة لم يتوقعها أحد ، انحنى (هاشم) ومال جانبًا ، وأطاح بمسدس العقيد (مختار) بضربة من يده اليسرى ، ثم اعتدل فى قوة ، وهوى على فك هذا الأخير بلكمة عنيفة ..

وسقط (مختار) أرضًا ، ساخطًا ، فى حين انحنى (هاشم) يلتقط مسدسه ، وهو يقول فى هدوء :

ـ لم يكن ينبغى أن يبدأ حديثنا على هذا النحو ، خاصة وأننا من فريق واحد و ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدّق فى نقطة ما على الأرض ، فهتف (يحيى) فى لهفة :

ـ ماذا هناك ؟

التمعت عينا (هاشم) قائلاً :

ـ يبدو أننى قد وجدت أوّل الخيط .

وأشار إلى شىء ما على أرض القاعة ..

شىء عجيب بحق ..

★ ★ ★

تطلّع الجميع فى حيرة إلى ذلك الشىء الدقيق ، الذى يمسك به (هاشم) بين سبّابته ، وإبهامه ، وخرج أوّل سؤال من بين شفتى العقيد (مختار) وهو يقول فى توتر يغلب عليه السخط :

ـ ما هذا ؟

وضع (هاشم) ذلك الشىء على راحته ، ومد يده إلى العقيد (مختار) يسأله :

ـ دعنى أنا ألق عليك هذا السؤال ، ما هذا الشىء ؟

تطلّع العقيد (مختار) فى حيرة إلى أسطوانة دقيقة لامعة ، تستقر فى راحة (هاشم) ، وهزّ رأسه ، متمتمًا :

ـ لستُ أدرى .. إنه يبدو لى مجرد قرص لامع صغير ..

ثم استطرد فى اعتداد :

ـ ولكن لدينا من يمكنه تحديد هويته ..

سأله (هاشم) على الفور :

ـ هل تقصد المهندس (نادر) خبير الإلكترونيات ؟

بدا الضيق على وجه (مختار) وكأنّما لم يرق له أن يستنتج (هاشم) الجواب وقال فى حنق :

ـ نعم .. هذا ما أقصده .. ولقد أرسلت فى استدعاء الجميع ، وسيكونون هنا بعد لحظات بإذن اللّه ..

قالها وانصرف مغادرًا المكان كله فى خطوات حادة . وكأنما لم يعد يحتمل مجرد البقاء مع (هاشم) ، الذى لم يبد عليه أدنى اهتمام بانصراف (مختار) ، بل راح يولى اهتمامه كله لتلك الأسطوانة اللامعة الدقيقة فى راحته ، فسأله (يحيى) :

ـ ماذا تظنها ؟

هزّ (هاشم) كتفيه ، وقال :

ـ تبدو لى أشبه بأسطوانة كمبيوتر ، ولكن بربع الحجم المعروف ، أو أقل .

وأطبق راحته على الأسطوانة ، وهو يلتفت إلى القاعدة المرمرية الخالية ، التى كانت تستقر الماسة فوقها منذ أقل من ساعة وسأل (يحيى) :

ـ قل لى : متى تم إيقاف وسائل الأمن ؟

ـ فور وصولنا ، فما كنا لنطأ أرض قاعة عرض (نجمة الصباح) دون إيقاف كل وسائل الأمن ، وإلا لأصبحنا بغتة فى سجن محكم ، وأمطرتنا أشعة الليزر القاتلة .

ـ هل سألت متى يتم تنظيف القاعة ؟

ـ بعد انصراف رواد المتحف تمامًا ، يقوم بتنظيفها عاملان ، تحت حراسة مشددة ، وتحت رقابة آلات التصوير التليفزيونية .

تطلّع إليه (يحيى) لحظة قبل أن يسأله فى خفوت وانفعال :

ـ (هاشم) .. لقد توصلت إلى شىء ما ؟

لم يقل غموض ابتسامة (هاشم) وهو يقول :

ـ لا .. ليس بعد يا صديقى ..

عقد (يحيى) حاجبيه فى شك ، وبدا له أن (هاشم) يخدعه على نحو ما ، أو يخفى عنه أمرًا حيويًا ، وكاد يُصارحه بهذا بالفعل ، لولا أن ارتفع صوت العقيد (مختار) :

ـ لقد وصل الثلاثة الآخرون .

التفت إليه (هاشم) وهو يقول :

ـ عظيم .

وراح يتأمل الرجال الثلاثة بنظرة فاحصة ..

كان أحدهم نحيلاً قصيرًا ، حاد النظرات ، يبدو شديد التوتر ، والآخر فارع الطول ، يرتدى منظارًا طبيًا أنيقًا ، ويحمل وجهه وسامة جيدة ، فى حين بدا الثالث بدينًا على نحو مبالغ ، جعل (هاشم) يسأله :

ـ أأنت مدير المتحف يا سيدى ؟

أجابه الرجل :

ـ لا .. المدير هو هذا النحيل القصير السيد (فتحى) ، أنا (رشوان) خبير الماس ، وهذا الطويل الوسيم هو المهندس (نادر) الخبير التكنولوجى .

غمغم (نادر) :

ـ تقصد خبير الإلكترونيات .

أطلق (رشوان) ضحكة ، وهو يقول :

ـ الفارق ليس كبيرًا ..

قال (هاشم) :

ـ ربما .. هذا ما سيخبرنا به المهندس (نادر) ، بعد أن يجيب عن سؤالى الأول ..

ثم فرد راحته أمام (نادر) قائلاً :

ـ ما هذا ؟

تطلع (نادر) إلى الأسطوانة الدقيقة فى هدوء ، وقال :

ـ إنها أسطوانة ليزر .

ـ وما عمل أسطوانة الليزر هذه ؟

ـ إنها تستخدم فى بعض الأنواع الحديثة من أجهزة الكمبيوتر، حيث يتم البحث عن المعلومة منها بوساطة شعاع من الليزر .

ـ كيف تُفسر إذن وجود أسطوانة ليزر على أرضية القاعة ؟

ـ ربَّما سقطت من أحد زوار المعرض ..

ـ هذا مستحيل ، لأن القاعة يتم تنظيفها فور انصراف الزوار ، ولن يترك عاملا النظافة أسطوانة لامعة كهذه .

ـ ما تفسيرك لوجودها إذن ؟ .

ابتسم (هاشم) وهو يدس الأسطوانة فى جيبه قائلاً :

ـ ليس لدى أى تفسير ..

ثم استطرد :

ـ بصفتك خبير الإلكترونيات ، والمسئول عن كل وسائل الأمن هنا .. أخبرنى : هل يمكن لأى مخلوق التسلل إلى القاعة ، وسرقة الماسة ، خلال دقيقة واحدة فقط ؟

ـ لا .. هذا مستحيل ، حتى ولو منحت السارق ثلاث ساعات ..

اندفع مدير المتحف يقول :

ـ بل هذا ممكن ، لو أنه أحسن التفكير ، فقد يمكنه هذا ..

سأله (هاشم) :

كيف يا سيد (فتحى) ؟

ـ يمكننى أن أريكم كيف .. أعطنى تلك الأسطوانة الصغيرة يا سيد (هاشم)

ناوله (هاشم) الأسطوانة فى بساطة ، فاتجه بها نحو الدائرة المحيطة بقاعدة الماسة ، وقال :

ـ لو أن السارق وضع تلك الأسطوانة فوق إحدى الخلايا الضوئية ، فيسنعكس عليها الضوء ، ويمكنه عندئذ أن يمد يده عبر الفجوة الناشئة ، ويسرق الماسة .

ارتسمت ابتسامة (هاشم) ، وهو يلتفت إلى (نادر) ويسأله :

ـ ما رأيك يا سيد (نادر) ؟

ـ أسخف فكرة سمعتها فى حياتى ..

احتقن وجه المدير غضبًا ، فى حين استطرد (نادر) فى حسم :

ـ وضع الأسطوانة الصغيرة فوق إحدى الخلايا الضوئية كفيل بإطلاق أجهزة الإنذار على الفور ، لامنعها من الانطلاق ، ثم إن الوصول إليها يستلزم أن يسير السارق فوق أرضية الحجرة ، ولو أنه فعل لانطلقت أجهزة الإنذار ، وأغلقت أبواب القاعة تلقائيًا ..

قال (هاشم) بابتسامة هادئة :

ـ شكرًا لك يا سيد (نادر) ، هذا يلغى فكرتك تمامًا يا سيد (فتحى) .

والآن هلا أعدت إلى تلك الأسطوانة ؟

عقد (فتحى) حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول فى عصبية :

مستحيل !

ـ بل ستعيدها إلى يا سيد (فتحى) ، وإلا اتهمتك بإعاقة سير العدالة ..

ـ ولكنك هنا فى أرضى أيها المفتش ، وكل من هنا يأتمر بأمرى .

ـ أعد الأسطوانة يا سيد (فتحى) وإلا ...

ـ لن تأخذها أيها المفتش ، امنعوه يا رجال ..

أسرع (يحيى) يستل مسدسه ، ولكن يد حراس المتحف أطبقت على عنقه من الخلف ، وأحاطت قبضة الحارس الأخرى بمعصم (يحيى) ، فى محاولة لمنعه من استخدام مسدسه ، فى حين رفع الحراس الثلاثة الآخرون أسلحتهم فى وجه (هاشم) ، الذى صاح فى غضب ، وهو يتجه نحو (فتحى) بحزكة حادة :

ـ أطع القانون أيها المدير ..

وانقض الحراس الثلاثة على (هاشم) ..

على رجل العدالة ..

★ ★ ★

قلائل هم ، من رأوا (هاشم) يعمل ..

ونُدرة هم ، من رأوه يُقاتل ..

ولكن كل من رآه أو تعامل معه ، كان يحمل له شعورًا واحدًا ..

الاحترام ..

وعندما انقض حراس المتحف الثلاثة على (هاشم) ، بأمر من مديرهم كانوا يجهلون كل شىء عنه ، إلا أنه رجل أمن ..

وبعد دقيقة واحدة ، كانوا يعلمون عنه الكثير ..

وكان الدرس سريعًا ..

وقاسيًا ..

فى نفس اللحظة التى انقضوا فيها ، تراجع (هاشم) إلى الخلف بغتة ، ثم دار على عقبيه ، وأطلق قبضته اليمنى كالقنبلة ، فى وجه أولهم ، ومال جانبًا لتلكم قبضته اليسرى أنف الثانى ، ثم قفزت قدمه تركل مسدس الثالث ، وقفزت القدم الأخرى بعدها بجزء من الثانية ، وغاصت فى معدة الرجل نفسه ..

وتأوه الحارس الثالث ، وهو ينثنى متراجعًا ، ممسكًا بمعدته فى ألم ، فى حين تجمدت الدماء فى عروق الرابع ، الذى يشل حركة (يحيى) ، عندما رأى مسدس (هاشم) مصوبًا إلى رأسه ، وسمع (هاشم) يقول فى مزيج من غضب وصرامة هائلين :

- اتركه .

وفى لمح البصر ، تخلى الحارس عن (يحيى) ، وتراجع رافعًا ذراعيه ، هاتفًا فى هلع :

- كنت أنفذ الأوامر فحسب .

سعل (يحيى) ، عندما تخلى الحارس عن عنقه ، واستل مسدسه على نحو غريزى ، فى حين صاح (هاشم) فى غضب ، وهو يلتفت إلى مدير المتحف ، الذى استحال وجهه إلى قطعة صفراء شاحبة :

- أى عبث يجرى هنا ؟! إننا نتقاتل كما لو كنا فريقين متعارضين ، على الرغم من أننا نسعى جميعًا لهدف واحد .. أعطنى الأسطوانة .

ارتجف جسد المدير (فتحى) وهو يمد يده إليه بالأسطوانة ، متمتمًا فى لهجة أقرب إلى الانهيار :

- ها هى ذى .. لم أكن أنوى مهاجمتك ، ولكننى أردت إنهاء الأمر داخليًا ، فنحن متحف له سمعته ، ولو انتشر الخبر فسوف ..

قاطعه (هاشم) فى صرامة :

القانون هو القانون يا سيد (فتحى) ، لقد سرق أحدهم الماسة النادرة ، ولا بد من التوصل إليه ، ومعاقبته ، حتى تتحقق العدالة .. إننى لا أتنازل أبدًا عن حق العدالة .. هل تفهم ؟

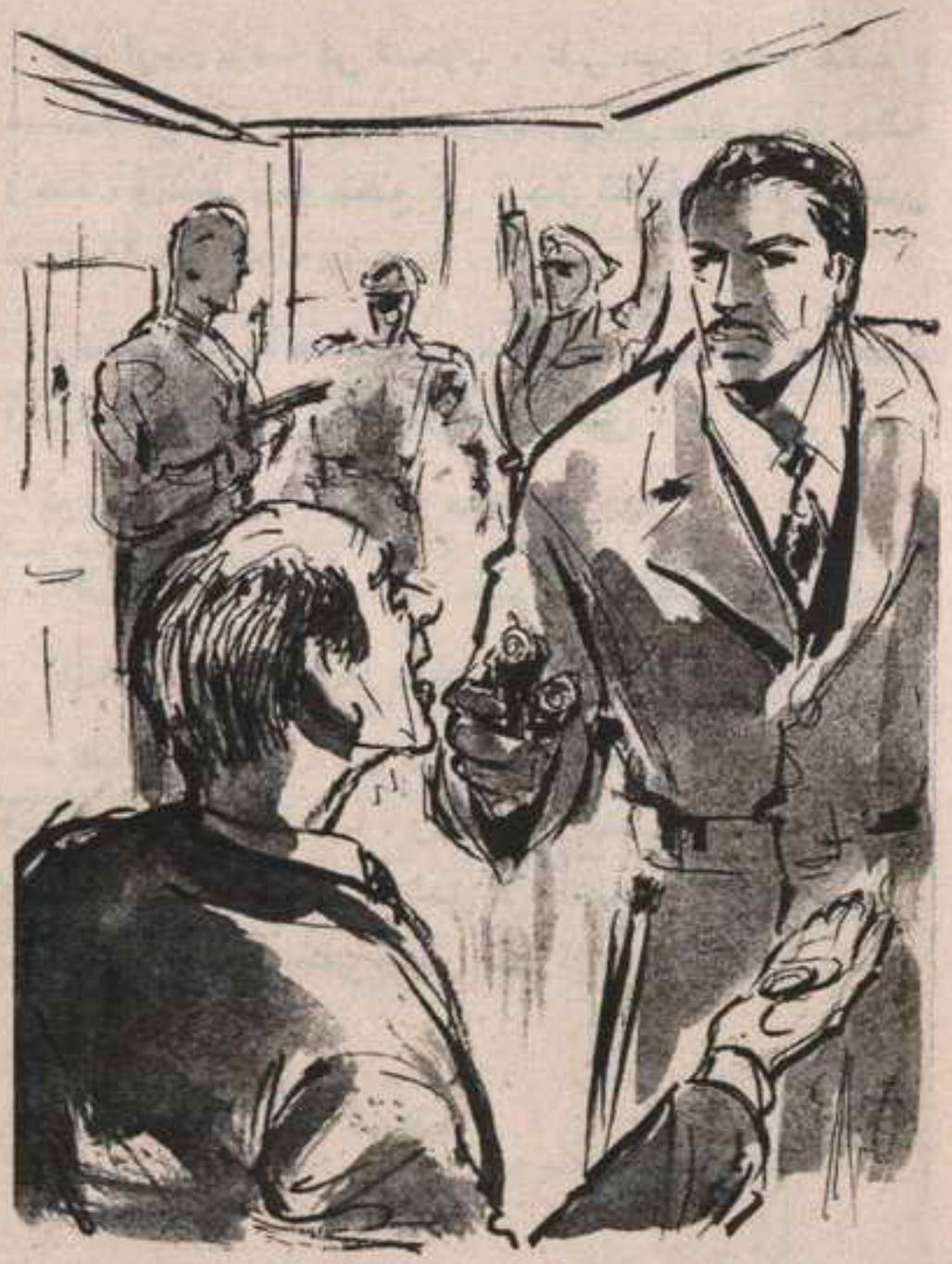

ارتجف جسد المدير (فتحى) وهو يمد يده إليه بالأسطوانة ..

أومأ الرجل برأسه فى شـحوب ، على حين أعاد (هاشم) مسدسه إلى جيبه فى بساطة ، وكأنما لم يكن ثائرًا منذ لحظة واحدة ، وأضاف وهو يتطلّع إلى الرجال الثلاثة الآخرين ، الذين شاركوا المدير ذهوله وشحوبه :

ـ سننسى كل ما حدث ، فليس لدينا وقت نضيعه فى مشاحنات وصراعات جانبية .. دعونا نواصل التحقيق .

ثم وجه حديثه إلى العقيد (مختار) ، قائلاً :

ـ قل لى يا رئيس الأمن .. من منكم يمكنه الاقتراب من الماسة ؟

أجابه (مختار) ، وهو يحاول السيطرة على أعصابه :

ـ كلنا يمكنه ذلك .. من حقى أنا أن اقترب منها ، لفحص وسائل الأمن ومراجعتها ، ولكننى لم ألمسها منذ وصولها ، والسيد (فتحى) المدير له الحق فى الاطمئنان عليها فى أية لحظة ، و (نادر) يستطيع فحص أجهزة المراقبة والأمن دائمًا .

سأله (هاشم) :

ـ وهل يتم هذا تحت المراقبة ؟

أجابه (نادر) هذه المرة :

ـ كل خطوة هنا تتم تحت المراقبة ، ويتم تسجيلها بآلات التصوير ، على شرائط خاصة .

سأله :

ـ وهل تحتفظون بهذه الشرائط دائمًا ؟

هز رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لا .. يتم تغييرها وتسجيل الأحداث الجديدة عليها كل اثنتى عشرة ساعة ، فلا مبرر للاحتفاظ بأطنان من الشرائط المسجلة دون طائل .

صمت (هاشم) لحظات ، وكأنما يدرس الأمر ، ثم سأل (رشوان) بغتة :

ـ متى قمت بتلميع الماسة لآخر مرة ؟

بدا وكأن (رشوان) قد بوغت بالسؤال ، أو كأنه تلميذ مهمل ، فاجأه أستاذه بسؤال دقيق حول مقرراته الدراسية ، على حين غرة ، فلقد ارتبك (رشوان) وتلعثم ، وراح يُجفف عرقًا وهميًا ، وهو يُجيب :

ـ هذا الصباح فحسب .. أعنى صباح اليوم السابق .

سأله (هاشم) فى هدوء :

ـ فى أية ساعة فعلت ؟

أجابه فى توتر :

ـ المتحف يفتح أبوابه فى التاسعة صباحًا للجمهور ، وأنا أعمل على العناية بالماسة وتلميعها فى الثامنة عادة ، لتتألق أكثر .

سأله :

ـ وكيف يتم هذا ؟

ازدرد (رشوان) لعابه على نحو ملحوظ . وأجاب :

ـ إننى أرشها بسائل خاص ، ثم أحيطها بغلاف مخملى رقيق ، وأقوم بتدليكها لدقيقة كاملة ، لإزالة كل ذرة غبار على سطحها ، وبعدها يبدأ تشغيل مصباح التألق ، فتبدوا الماسة مبهرة .

عقد (هاشم) حاجبيه ، وهو يسأل :

ـ ما مصباح التألق هذا ؟

أشار (نادر) إلى دائرة من المعدن ، تعلو القاعدة المرمرية تمامًا ، تراصت داخلها عدة مصابيح صغيرة ، بنفسجية اللون ، وقال :

ـ هذا هو مصباح التألق .. إنها عدة مصابيح دقيقة ، تطلق أشعة غير مرئية ، هى مزيج من الليزر والأشعة فوق البنفسجية ، وهذا الضوء الخاص ينعكس على سطح الماسة على نحو أكثر تشتتًا مما يفعل الضوء العادى وهذا التشتت يمنح الماسة بريقًا مضاعفًا ، وبهاءً مبهرًا .

صمت (هاشم) لحظات أخرى ، ثم سأل (رشوان) :

ـ هل رآك أحد وأنت تقوم بعملك هذا الصباح ؟

أجابه (رشوان) :

ـ أجل .. رآنى الجميع ، وتم تفتيشى أيضًا .

وابتسم (نادر) قائلاً :

ـ الأمور هنا تسير بدقة بالغة يا رجل العدالة .. بل هى تفوق دقة الساعة ، فكل من يقترب من الماسة يتم تفتيشه جيدًا ، قبل دخول حجرة عرضها ، ما دامت وسائل الأمن متوقفة عن العمل ، ونحن نوقفها حتمًا ، عندما يقوم السيد (رشوان) بتلميع الماسة ..

تطلَّع إليه (هاشم) لحظة فى صمت ، ثم ابتسم ابتسامة غامضة ، وهو يقول :

ـ واضح من لهجتك أنك تهوى الدقة الشديدة فى كل الأمور .

هزَّ (نادر) كتفيه ، وقال فى بساطة :

ـ إنه عملى .

ران الصمت تمامًا على المكان ، بعد عبارة (نادر) المقتضبة ، وتعلقت العيون كلها بـ (هاشم) ، الذى راح يحك أرنبة أنفه بسبَّابته فى بطء ورتابة ، فغمغم (يحيى) فى قلق :

ـ الأمر يبدو شديد الغموض مثيرًا للحيرة .. أليس كذلك ؟

التفت إليه (هاشم) فى هدوء ، وبدا لحظة أنه شديد الشرود ، إلا أنه لم يلبث أن ابتسم ، وقال :

ـ لا .. ليس تمامًا .

هتف (يحيى) فى لهفة :

ـ هل توصَّلت إلى شىء ما ؟

هزّ كتفيه دون أن يُجيب ، ودون أن تتلاشى ابتسامته ، فقال العقيد (مختار) فى سخرية عصبية :

ـ هيا يا (شيرلوك هولمز) .. أخبره عما توصَّلت إليه .

أدار (هاشم) عينيه إليه ، وبدا هادئًا واثقًا ، وهو يقول :

ـ ليس بعد .

واستدار يتطلع إلى قاعدة (نجمة الصباح) المرمرية لحظة ، قبل أن يسأل :

ـ هل تعمل وسائل الأمن الآن ؟

أجابه (نادر) فى هدوء :

ـ لا .. إنها تتوقف عند حدوث طارئ مفاجئ .. رجال الحراسة يوقفونها .

هز (هاشم) رأسه متفهمًا ، واتجه نحو القاعدة ، وانحنى يفحص إطارًا أنيقًا يحيط بقمتها ، ويحمل نقوشًا منتظمة ، وقال :

ـ أنيق هو هذا الإطار .

أجابه (مختار) فى ضيق :

ـ إنه القاعدة التى ترتكز عليها (نجمة الصباح) ، وهو ليس مجرد إطار .. إنه نوع من الـ .. الـ ..

بدا وكأنه لا يتذكر الاسم تمامًا ، فقد التفت إلى (نادر) ، واستطرد فى عصبية :

ـ ما اسم هذا الشىء ؟

أجاب (نادر) فى بساطة :

ـ حافظ اتزان إليكترونى .. إنه جهاز خاص ، يعمل إلكترونيًا ، لتبقى (نجمة الصباح) دائمًا ثابتة ، مستقرة على طرفها المدبب ..

ابتسم (هاشم) وقال :

ـ رائع هو متحفكم هذا .. إنه يزخر بالأجهزة الحديثة ..

بدا الضيق على وجه (يحيى) ، وهو يقول :

ـ إذن فأنت لم تتوصل إلى شىء هذه المرة .

التفت إليه (هاشم) وقال :

ـ وهل خذلتك من قبل يا صديقى ؟

بدا الانفعال واللهفة على وجه (يحيى) فى حين قال (نادر) :

ـ ربَّما تشعر بالحيرة هذه المرة ، لأن الأمر يتعلق بأجهزة تجهل معظمها .

بدا وكأن (هاشم) سيطلق ضحكة مدوية ، وهو يقول :

ـ على العكس .. لقد جعل هذا الموقف أكثر طرافة .

وعقد ساعديه أمام صدره ، وعادت ملامحه إلى جديتها ، وهو يقول :

ـ ثم إننى أحمل لكم مفاجأة أيها السادة .

تطلَّعوا إليه جميعًا فى تساؤل ، فأضاف فى حزم ، وبلهجة تحمل ثقة لا حصر لها :

ـ لقد عرفت من الجانى .. من سرق (نجمة الصباح) .. وكيف ..

وكانت مفاجأة بحق ..

* * *

تعلَّقت العيون كلها بوجه (هاشم) ، بعد أن أدلى بهذا التصريح الخطير ، عن كشفه حل اللغز كله ..

لغز (نجمة الصباح) ..

وكانت كل هذه العيون تحمل مزيجًا عجيبًا من القلق والترقب والتوتر والدهشة ، جعل (هاشم) يبتسم فى هدوء ويقول :

ـ لقد تمت السرقة على نحو بالغ المهارة والتعقيد ، ولكن ما من جريمة كاملة فى التاريخ كله .. لم ولا ولن توجد مثل هذه الجريمة ، فالشر لن ينتصر أبدًا على الخير ، وكل مجرم يرتكب ولو ..

قاطعه العقيد (مختار) فى عصبية :

ـ أفصح عمَّا لديك يا رجل .. لسنا نحتاج إلى تلك المحاضرة التقليدية ..

ابتسم (هاشم) أكثر ، وهو يقول :

ـ أنت على حقٍّ ، فالدنيا كلها تعلم هذه القاعدة ، دون أن يستفيد منها مجرم واحد ..

والتفت إلى حيث قاعدة الماسة ، وأضاف فى حزم :

ـ دعونا نسترجع الموقف كله أيها السادة .. لديكم هنا ماسة نادرة .. يبلغ ثمنها عشرين مليونًا من الدولارات ، وهو مبلغ يسيل له لعاب أى شخص يحمل فى أعماقه بذرة شر ، على الرغم من وسائل الأمن الإلكترونية ، البالغة التعقيد ، التى تحيط بها ، ولكن ..

استدار إليهم مرة أخرى ، وهو يرفع سبَّابته أمام وجهه ، مردفًا فى صرامة :

ـ لا يوجد جهاز أمنى يستحيل اختراقه .

لاحت ملامحه بغتة ، على نحو أدهشهم وارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ، وهو يستطرد :

ـ ولقد سرقت الماسة بالفعل ، وهذا يجعلنا نستبعد تمامًا فكرة استحالة سرقتها ، ويدفعنا فقط للبحث عن الوسيلة والشخص ، وفى رأيى أنا تأتى الوسيلة فى البداية ، فكشف كيفية السرقة يقودنا فى المعتاد إلى السارق ، والعكس أكثر تعقيدًا بكثير ..

قاطعه (فتحى) المدير هذه المرة :

ـ سيد (هاشم) .. أرجوك .. نريد أن نعرف .

لم يبد على (هاشم) أنه يعير هذه المقاطعة اهتمامًا ، فقد تابع بنفس الهدوء والابتسامة الغامضة ، وكأنما لم يسمع عبارة المدير:

ـ والوسيلة هنا محيرة ، فلقد تمت سرقة الماسة فى فترة وجيزة للغاية ، يستحيل خلالها أن يتسلل أى مخلوق إلى داخل المتحف ، حتى ولو طار مثل (سوبر مان) ، فستعترضه حواجز الأشعة دون الحمراء ، وقذائف الليزر ، وشبكات الكمبيوتر .

ثم تسلل الخبث إلى ابتسامته ، وهو يقول :

ـ إلا لو كان خبيرًا فى تفادى تلك العوائق الإلكترونية ..

عقد المهندس (نادر) حاجبيه فى غضب ، وهو يقول :

ـ هل تتهمنى أيها المفتش ؟

لوَّح (هاشم) بكفه ، قائلاً :

ـ من السهل أن أفعل ، ولكن حتى أنت تعجز عن بلوغ الماسة واقتناصها ، على الرغم من معرفتك بكل وسائل الأمن المحيطة بها ، فالوصول إليها يحتاج إلى دخول المتحف ، وتجاوز طاقم الحراسة أوَّلاً .

بدا الارتياح على وجه (نادر) ، فى حين أضاف (هاشم) :

ـ ثم إنك لا تجيد التعامل مع الماس ، مثلما يفعل السيد (رشوان) .

هتف (رشوان) فى ذعر :

ـ أنا ؟! ولكننى لم ألمس الماسة منذ قمت بتلميعها هذا الصباح ، ولقد بقيت فى موضعها بعد انصرافى ، وحتى عندما اختفت ، كنت أنا فى حفل خاص ، حضره العشرات و ...

قاطعه (هاشم) فى هدوء :

ـ أنا واثق بأنك لم تتجاوز حواجز الأمن لسرقتها ، فحجمك وحده يمنعك من هذا ، ثم إنك لست صديقًا ورئيسًا لرجال الحراسة ، حتى يمكن الاستعانة بهم ، أو ضمان سكوتهم .

هتف العقيد (مختار) فى ثورة :

ـ هل تشير إلىَّ ؟

رفع (هاشم) سبابته أمام وجهه قائلاً :

ـ مطلقًا ، فأنت شخص عصبى بطبعك ، وأمثالك لا يصلحون للقيام بسرقة دقيقة كهذه .

قال المدير (فتحى) فى حدة :

ـ لم يبق سواى .

هز (هاشم) كتفيه ، وقال :

ـ ربما ، ولكن توترك الملحوظ هذا سيجعل سرقتك للماس أمرًا واضحًا حتى للأعمى .

ابتسم (مختار) فى شماتة ، وهو يقول :

ـ إذن فقد فشلت فى معرفة السارق .. أو أنه ليس أحدنا على الأقل .

قال (هاشم) بابتسامته الغامضة :

ـ أنا لم أقل هذا .

صاح (يحيى) بغتة :

ـ لقد فهمت .. إنها نفس نظرية عصابة الحراس الأربعة ، التى رفضتها أنا .. إننا الآن أمام عصابة تتوافر لها كل الشروط .. أليس كذلك ؟ لقد سرق هؤلاء الأربعة الماسة ..

صاح المدير فى غضب :

ـ لست أسمح لك ، ولست ..

قاطعه (هاشم) فى حزم :

ـ لا بأس أيها السادة .. لقد مللت الأمر .

تعلقت به العيون كلها مرة أخرى ، فأضاف :

ـ الواقع أن الأمر يثير حيرة الجميع ، لأننا نحاول البحث عن الوسيلة التى سرقت بها الماسة ، خلال فترة إبدال الحراسة القصيرة ، ولكن الواقع أن الماسة قد سرقت قبل ذلك .. قبله بكثير ..

اتسعت عيون الجميع فى دهشة ، وهتف (رشوان) فى ذعر :

ـ ولكن كيف ؟

ابتسم (هاشم) ، وهو يقول :

ـ لا تلق هذا السؤال يا سيد (رشوان) ، فأنت بالذات تعلم كيف تم هذا .. لقد أتيت لتلميع الماسة كالمعتاد ، وقام الحراس بتفتيشك قبل الدخول إلى حجرة عرضها ، ثم أخرجت أنت قطعة المخمل ، ووضعتها فوق الماسة ، بحيث أخفيتها تمامًا وساعدك جسمك الضخم على إخفاء المشهد عن آلات التصوير ، وأنت تحيط الماسة بالمخمل ، ثم تضعها فى جيبك .

شحب وجه (رشوان) فى شدة ، واحتبس صوته فى حلقه لحظة ، قبل أن يهتف مذعورًا :

ـ ولكن الماسة بقيت فى موضعها ، بعد أن انصرفت أنا و ..

قاطعه (هاشم) :

ـ خطأ يا سيد (رشوان) .. إنك لم تترك الماسة فى موضعها ، فلقد حملتها معك وأنت تغادر القاعة ، ومن المؤسف أن الحراس لا يعملون على تفتيشك فى أثناء خروجك ، كما يفعلون مع دخولك .

قال (مختار) فى توتر :

ـ ولكن الماسة بقيت بالفعل .. لقد رأيتها بنفسى ، و (رشوان) ينصرف ..

أجابه (هاشم) :

ـ إنك لم ترها يا سيد (مختار) ، وإنما رأيت صورتها .. صورة هولوجرافية مجسمة لها ، بدت بأبعادها الثلاثة ، وكأنما هى الماسة نفسها .

اتسعت عينا (مختار) فى ذهول ، وهو يردد :

ـ صورة ماذا ؟

التفت (هاشم) إلى (نادر) ، وقال :

ـ صـورة هولوجرافيـة أيهـا المهنـدس .. أنـت تفهـم تمامًـا ما أتحدث عنه يا سيد (نادر) ، فالصور المجسمة هـى صـورة ذات ثلاثة أبعاد ، يتم عرضها بوساطة شعاع من الليزر ، يسقط فوق أسطوانة تحمل الصورة المراد عرضها ..

وأخرج الأسطوانة الدقيقة من جيبه ، مستطردًا :

ـ أسطوانة مثل هذه .

لم ينبس (نادر) ببنت شـفة ، وإن بدا شحوبه الشديد أشبه باعتراف كامل ، و (هاشم) يستطرد :

ـ لقد تمت الجريمة بدقة بالغة .. بنفس الدقة التى تهواها يا (نادر) .. لقد حمل (رشوان) الماسة من موضعها فى نفس اللحظة التى بدأ فيها جهاز العرض الهولوجرافى ، الذى أخفيتـه أنت داخل حافظ الإتزان الإلكترونى فى العمل ، راسمًا صورة خداعة لـ (نجمة الصباح) ، أوهمت الجميع بوجودهـا فـى موضعها ، فى حين يغادر (رشوان) المتحف كله بها ، فى هدوء واطمئنان ، ويستمر عرض الصورة بوساطة مصباح ليزر خـاص ، أضفتـه أنـت إلـى مصباح التألق فوق الماسة ، ويتوهم الجميع أن (نجمة الصباح) تتألق فى موضعها ، حتى يحين موعد تبديل الحراسة ، بعد مرور أكثـر من اثنتى عشرة

ساعة ، وبعد أن تم محو أشرطة التسجيل التليفزيونية ، التى يمكنها وحدها إثبات سرقة (رشوان) للماسة ، وهنا يتوقف جهاز عرض الليزر عن العمل ، ويقذف الأسطوانة التى تحمل صورة الماسة خارجه ، فتبدو الماسة وكأنها قد اختفت بغتة كالسحر ..

ورفع الأسطوانة الدقيقة أمام وجهـه ، مستخدمًا سبابته وإبهامه فقط ، وهو يضيف :

ـ وفى نفس اللحظة التى يقذف فيهـا الجهـاز الأسطوانة خارجه ، يمحو عنها الصور الهولوجرافية ، والدليل الوحيد على ما حدث .. ولكن وجود الأسطوانة كان يؤكد أنها قد جاءت من مكان ما ، بعد انتهاء عاملى النظافة من تنظيف القاعة ، ولم يكن هناك مكان يصلح لمجيئها سوى هذا الشىء الذى يعلو القاعدة المرمرية ..

ثم ابتسم ، مستطردًا فى هدوء :

ـ ألم أقل لـك إنـه ما من مجرم لا يرتكب ولو خطأ واحدًا صغيرًا ؟

قاوم (نادر) شحوبه ، وهو يغمغم فى صوت متحشرج مختنق :

ـ إننى أنكر هذا و ...

ولكن (رشوان) إنهار بغتة ، وهو يهتف :

ـ سأعترف .. سأعترف بكل شىء ..

وهنا ابتسم (هاشم) فى رصانة ، وقال :

ـ لا فائدة يا (نادر) .. لقد انتهى كل شىء .. لقد خسرت اللعبة .. خسرتها تمامًا ..

★ ★ ★

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية والنصف ظهرًا ، عندما ربت (يحيى) على كتف (هاشم) ، مغمغمًا :

ـ هل استغرقت فى النوم ؟

فتح (هاشم) عينيه فى بطء ، وقال :

ـ ليس بعد .. وإن كنت أتمنى هذا . قل لى : هل انتهيت من عملك ؟

ابتسم (يحيى) ، وجلس إلى جواره ، قائلاً :

ـ كل شىء على ما يرام . لقد أدلى (نادر) و(رشوان) باعتراف تفصيلى ، وأرشدنا إلى الموضع الذى أخفيا فيه الماسة ولقد استعدناها ، والعقيد (مختار) يود أن يعتذر عما سببه لك ، وكذلك مدير المتحف ، الذى يصر على منحك وسامًا خاصًا و ...

لوح (هاشم) بكفه ، قائلاً :

ـ فيما بعد يا صديقى .. فيما بعد ، فلست أميل إلى حمل الأوسمة ، وإنما إلى النوم الآن .. النوم العميق ..

راقبه (يحيى) وهو ينطلق بسيارته عائدًا إلى منزله ، ثم ابتسم فى إعجاب ، وغمغم :

ـ يا لك من رجل يا (هاشم) .. إنك حقًا أفضل من يحمل هذا اللقب .. لقب (رجل العدالة) ..

★ ★ ★

(تمت)

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

المرأة مشكلة .. صنعها الرجل

(دراسة)

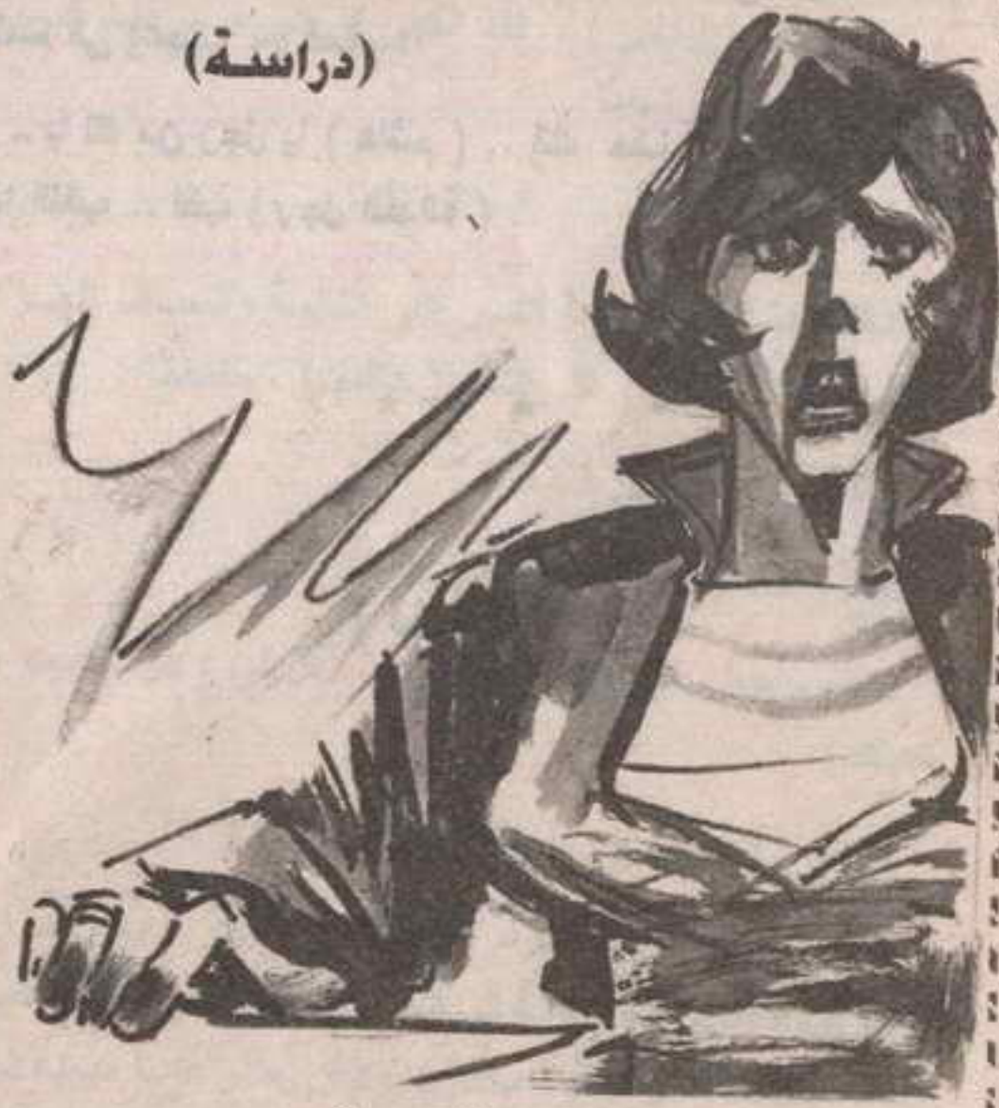

ما بعد الحرية ..

ما بعد الحرية ..

القرن الحادى والعشرون أعلن عن مقدمه ، والمرأة حصلت على أضعاف أضعاف الحرية ، التى كانت تحلم بها مع بداية القرن العشرين ..

فهل انصلح المجتمع ؟!

المرأة فى بداية الخمسينات كانت أمًا ، وربة منزل ، تحلم بمعاملة حسنة من أسرتها وزوجها ، وتقضى يومها كله فى رعاية أطفالها ، وتنظيف وتنظيم بيتها ، وانتظار زوجها ، العائد مرهقًا من عمله ، لتهرع إليه بالمياه الدافئة ، فتدعك قدميه المتعبتين ، وتربُت على كتفه المجهد ، ثم تطعمه وترعاه ، وتمنحه حبها ، وحناتها ، ودفأها ، وجسدها كله ، قبل أن يغمض الاثنان عيونهما ، إعلانًا لنهاية يوم مضى ، واستعدادًا لاستقبال يوم جديد ، مع نسمات الصباح الأولى ..

وكان هذا يسعد الرجل ..

والمرأة أيضًا ..

أحدهما يتولَّى الإنفاق والشئون الخارجية ..

والآخر يرعى ويعتنى بالأمور الداخلية ..

ولو أن كلاً منهما قد قام بعمله كما ينبغى ، لاستمر هذا الأمر إلى الأبد ..

ولكن الرجل لم يكتف بحنان المرأة وحبها وجسدها ..

لقد أراد السيطرة على عقلها وأعماقها ..

وحتى روحها ..

ولأن المرأة ظلت لقرون طويلة محاصرة مقهورة ، فقد ارتضت هذا التجاوز فى استسلام ..

أو على مضض ..

ومع صمتها ، تمادى الرجل أكثر وأكثر ..

وراح يتوغَّل فى عقلها ، وروحها ، ويفرض سيطرته حتى على أفكارها ، وميولها ، واهتماماتها ، حتى لم يعد من حقها أن تحب أو تكره ، أو تهتم بأى شىء فى الوجود ، سوى ما يريده زوجها ويرغبه ..

ولأن السيطرة الاقتصادية كانت فى يد الرجل بالكامل ، فقد استرخى فى مقعد الحكم ، ووضع قدميه على عرش التحكُّم والقوة ، وتصوَّر أن الدنيا ستمضى به أبدًا على هذا الوضع ..

ولكن كل شىء يتغيَّر ..

والزمن دومًا يمضى ..

وفى حذر ، بدأت المرأة تخرج إلى المجتمع ..

وإلى العمل ..

فى البداية كانت تمتهن المهن المعاونة ، كالتمريض والسكرتارية ، أو تعمل كبائعه فى متجر ، أو فى شباك تذاكر ..

ولم ينتبه الرجل إلى التغيير فى حينه ، وإنما تصوَّر بجبروته أنها مجرَّد وسيلة لزيادة الدخل ، فراح يستولى على راتبها كله ، ولا يمنحها من عائد تعبها وشقائها سوى مصروف يد بسيط ، يكفى نفقاتها الشخصية ، ومواصلاتها الحتمية بصعوبة ..

ولهذا لم تكتف المرأة بالعمل ..

وانطلقت تقتحم مجالات التعليم أيضًا ..

وفجأة ، وجد الرجل المرأة طبيبة ، ومحامية ، ومهندسة ، ومدرسة ..

فى البداية سخر من عملها ، وتعليمها ، بحجة أن هذا يجعلها أشبه بالرجل ، ولا ينقصها سوى الشارب ..

ولكن سخريته هذه لم تعترض طريقها ، بل كانت حافزًا أكبر لاندفاعها فى التعليم والعمل ، إلى أقصى حد يمكنها بلوغه ..

ولم تبدأ السبعينات ، حتى كانت المرأة تحتل كل المناصب الممكنة ..

حتى منصب الوزير ..

وكتطوّر طبيعى للمجتمع ، بدأ الكل يتقبّل عمل المرأة ، بل ويدعوها إليه ، بحجة أن وجودها فى البيت يقضى على كيانها وشخصيتها (وهو قول أختلف معه كثيرًا) ..

وتضاعف دخل المرأة ، وصارت لها شخصية مالية مستقلة تمامًا ، بل إنها ، وبعد سياسة الانفتاح ، صارت هى مصدر الدخل الرئيسى للمنزل ، بعد حصولها على عقد عمل فى بلاد النفط ، واصطحابها زوجها (لو أرادت) ، كمحرم فقط ، يجلس فى انتظارها بلا عمل ، حتى تعود إليه مرهقة مكدودة ، مطالبة بالماء الدافئ والحنان والحب ..

وهنا ، وأمام سطوة المال ، احنى الرجل رأسه ..

واستسلم لما لم يكن يتخيّله أجداده ..

ولم يعد يجرؤ (فى معظم الأحيان) على التطاول على المرأة ، أو سلبها راتبها وحقوقها ..

ومع بداية الثمانينات ، كان الأمر قد تطوّر أكثر وأكثر .

بعد أن كانت قلة من النساء تعملن ، وتحتللن مناصب رفيعة ، أصبح من النادر أن تجد امرأة لا تعمل (فى الطبقة المتوسطة على الأقل) ..

واتهالت عليها الحقوق من كل صوب ..

وأصبحت المرأة سيِّدة أعمال ، ووزير ، وعضو بمجلس الشعب والشورى ..

ومع المكاسب والحقوق ، ومع استمرار تعنت معظم الرجال فى الوقت ذاته ، اندفعت النساء إلى العمل أكثر وأكثر ..

ولأن كل تطرف له ضحاياه ، فقد كانت المرأة هى ضحية تطرُّف وتعنت الرجل فى البداية ، ولقرون طويلة ..

ثم أصبح البيت والأولاد هم ضحية تطرُّف المرأة فى النهاية ..

صحيح أن كل امرأة عاملة تصرّ على أنها تستطيع التوفيق جيدًا جدًا ، بين عملها وبيتها ، وتربية أولادها ..

ولكن ما نراه حولنا لا يمنحنا أدنى شعور بهذا ؟

هل يبدو لك المجتمع من حولك مجتمعًا سليمًا صحيحًا صحيًا ، يحلو لك العيش فيه ، ويطيب لك حتى السير فى طرقاته ؟!

هل يبدو لك الجيل الناتج من أسر يعمل فيها الوالدان ، جيلاً متماسكًا ، قويًا ، تلقى تربية مثالية ، فى قواعد الأخلاق ، والذوق ، والعقيدة ؟!

المرأة ليست المسئول رقم واحد بالطبع ، عن كل ما أصاب المجتمع من تفسُّخ وتفكُّك ، وفساد وانحلال ، وبعد كبير عن القيم والدين والذوق ..

ولكنها بالطبع لبنة رئيسية فى تكوينه ..

فقديمًا قالوا : « الأم مدرسة ، إذا أعددتها ، أعددت شعبًا طيب الأعراق » ..

ولقد انشغلت المرأة بإعداد نفسها ماليًا واقتصاديًا ..

وبالحصول على أعلى الشهادات وأرفع المناصب ..

وبالفوز بالعشرات من الحقوق والامتيازات ..

ولكنها نسيت أن تمنح روحها بعض الوقت ..

ونسى الرجل أيضًا أن دوره مازال هو قيادة الأسرة ..

لقد انتزعت منه المرأة عشرات الحقوق ، ووقف الرجل ساكنًا صامتًا سلبيًا ، يراقبها وهى تصنع لنفسها شخصية أخرى ، وتعيد تشكيل عقلها وروحها وكيانها ..

وفجأة ، أدرك الرجل ، بعد فوات الأوان ، أنه قد فقد السيطرة على الأمور تمامًا ..

المرأة تحرَّرت ، ولم يعد لها ضابط أو رابط ، واتخذت اتجاهًا معاكسًا تمامًا ، لذلك الذى سارت فيه جدتها ..

لم تعد تخضع للرجل ..

بل صارت تنافسه ..

وتحاربه ..

وتقاتله بشراسة ليس لها مثيل ..

وبعد أن كان الرجل متهمًا بالتعصب الجنسى ضد المرأة ، أصبحت المرأة هى رمز للتعصُّب الجنسى ضد الرجل ..

والغريب أن معظم النساء تصوَّرن أن كيانهن سينهار ، لو أنهن أطعن أزواجهن ، اللذين أمر الله (سبحانه وتعالى) بطاعتهم ، ولو خضعن لرأيهم ، مهما كان صائبًا أو خاطئًا ، وأن كرامتهن ستسحق بالأقدام ، لو أولين البيت والزوج اهتمامًا وعناية ..

ولأنه فى أغرب الظواهر ، فى عالمنا العربى ، أن التغيرات السيئة تجد سبيلاً واسعًا للانتشار والتوغل فى مجتمعاتنا ، على عكس التغيرات الحسنة ، فقد انتشرت ظاهرة التعنت ضد الرجال ، والذكور عامة ، انتشار النار فى الهشيم ، وصار من العسير ، والعسير جدًا ، أن تجد فتاة بسيطة ، هادئة ، ترعى أنوثتها ، بأكثر مما ترعى عنادها ..

وعلى الجانب الآخر من المجتمع نفسه ، تجد فئة من النساء أكثر خضوعًا واستسلامًا من جداتهن (فى معظم الطبقات الشعبية) ، كنوع من الحفاظ على التقاليد القديمة ، أو خضوعًا لتعاليم الإسلام (من وجهة نظرهن) ..

وكل هذا يعنى أنه ، حتى بعد الحرية ، لم ينضبط المجتمع ..

فالحرية ليست هى العامل المطلوب ، لتحقيق سلامة وأمن المجتمع ، وتلاحم أفراده وفئاته ..

والانطلاق ليس الوسيلة الصحيحة ، للفوز بأمان اجتماعى ، أو استقرار سياسى أو اقتصادى ..

الحرية وحدها لا يمكن أن تحقق شيئًا ، ما دام أحد طرفى المجتمع ما زال يتعامل مع الطرف الآخر باعتباره خصمًا أو عدوًا ، ينبغى قهره وإخضاعه ، وتحديد مساره وأفكاره وصلاحياته ..

أيًا كان الطرف الأوّل ، والثانى ..

إن ما نحتاج إليه فعلاً ، وما يمكن أن تقودنا إليه هذه الدراسة ، هو التوازن ، الذى دعانا إليه الدين ، منذ عدة قرون ..

التوازن فى الحقوق والواجبات ، بين كل أطراف المجتمع ..

المرأة لن تسعد أبدًا ، وهى تعتبر أن محاربة الرجل جزء من أسباب وجودها فى هذه الحياة .

والرجل لن يسعد ، وهو يقاتل ويصارع رفيقة عمره ، بدلاً من أن يصبح زواجهما مودّة ورحمة كما ينبغى ..

أية سفينة ، لا يمكن أن تمضى فى أى بحر ، لو أن كل من بها يتقاتلون ويتصارعون ، ويتنافسون ..

دعونا نحاول تغيير صيغة المجتمع ..

مجرّد محاولة ..

دعونا نحاول أن ننسى ذلك القتال المستمر ، ونسعى لإنشاء علاقة جديدة ، تقوم على الصداقة والمودّة ..

والحب ..

علاقة تحقق التوازن بين الجنسين ، ويعترف كل طرف فيها بحقوق الطرف الآخر ، وبواجباته تجاهه ..

علاقة تقوم ، كما أمرنا اللّه (سبحانه وتعالى) على المودّة والرحمة .

ودعونا ننسى كل الخلافات القديمة ..

وكل الرواسب ..

والتعنتات ..

والمشكلات ..

والصراعات ..

وربما لو فعلنا ، لأمكننا أن ننسى يومًا أن المرأة مشكلة .. صنعها الرجل .

د. نبيل فاروق

١٤ ديسمبر ١٩٩٩

حريتى .. (خواطر)

الحرية ..

يا لها من كلمة رائعة ، لها فى أعماقى وقع لا ينافسه وقع أية كلمة أخرى ..

إنها حبى الأوّل ..

وعشقى ..

وهيامى ..

والهدف ، الذى أقاتل من أجله ، منذ وعت عيناى الدنيا ..

فأنا أومن جدًا بالحرية ..

حريتى ..

وحرية الآخرين ..

وهنا تكمن عظمة الإحساس الحقيقى بالحرية ..

وهذا يختلف تمامًا عن الفوضى ، التى نتصوّرها أحيانًا حرية ، فنفعل كل ما يروق لنا ، دون ضابط أو رابط ، حتى ولو آذينا شاعر الآخرين ، ونسفنا حريتهم من أساسها ..

أما الإيمان الحقيقى بالحرية ، فهو إحساس كبير بالمتعة والمسئولية ..

مسئوليتنا تجاه أنفسنا ..

وتجاه الآخرين ..

فحرية المرء تنتهى ، عندما تبدأ حدود حرية الآخرين ..

وعندما تعترضنا حدود العقيدة ، والأخلاقيات ، والمجتمع ..

ومع انتقالى وأسرتى ، من (طنطا) إلى (القاهرة) ، كان أهم ما سعيت إليه هو الحصول على شقة إضافية ، كمكتب خاص لى ، يمكننى فيه الحصول على القدر اللازم من الاستقلالية والحرية ، للتفكير والإبداع ..

وكما منحنى أستاذى الأستاذ (حمدى مصطفى) مسكنًا ، فوجئت به يمنحنى مكتبًا أيضًا .

ولا أحد يمكنه أن يتصوّر مدى سعادتى بهذا الأمر ..

فبدون الحرية ، لا يمكننى أن أفكّر ..

أو أبدع ..

أو أحصل حتى على الاسترخاء الكافى ، للدخول فى الحالة اللازمة لوضع فكرة جديدة ..

أو قصة جديدة ..

بل وبدونه لن أجد مكانًا كافيًا لمكتبتى الضخمة ، التى تجاوزت العشرة آلاف كتاب ، ولكل مستلزمات هواياتى المتعدّدة ، التى تنعش روحى وأفكارى ، فى أوقات فراغى ، وبين ساعات العمل ..

وكتداع طبيعى ، أصبح المكتب هو المكان الذى أستقبل فيه كل الأصدقاء ، والزملاء ، والضيوف ، والقراء أيضًا ، باعتبار أن المنزل بالنسبة لى دائمًا مكان مقدّس ، للهدوء والراحة ، لا ينبغى أن يعكّر العمل صفوه قط ..

ولكن ، ومع مرور الوقت ، فوجئت باقتحامات عديدة لحريتى ، على نحو مستفز ..

زيارات مباغتة ، دون إنذار أو موعد سابق ..

أو زيارات طويلة للغاية ، وكأننا فى مقهى عام ، ولسنا فى مكتب للعمل والإنتاج ..

بل ويتصل الأمر أيضًا إلى إعطاء مواعيد للآخرين فى مكتبى ، وكأنه ناد اجتماعى ترفيهى للكافة ..

والمرهق أن الكل لا يكتفى بالجلوس والحديث ..

إنهم يبدءون فورًا فى العبث بمحتويات المكتب ، من الكتب والمخطوطات ، والتحف ، وحتى الأوراق الشخصية ، بحجة أن كل شىء فيه متميّز ومختلف ..

ولكن أكثر ما يزعجنى بحق ، هو نظرية التتبُّع ..

فقد أستقبل صديقًا أو زميلاً أو ضيفًا ، أو حتى قارئًا ، فى حجرة مكتبى ، فى بداية المكان ، ثم أنهض لإعداد مشروب ساخن ، أو إحضار آخر بارد من المطبخ مثلاً ، فأجده فجأة إلى جوارى ، يعرض معاونته ..

وهذا يزعجنى بشدة ..

وربما أكثر مما يمكنكم تصوّره ..

بكثير ..

فالتتبُّع هنا لا يقتصر على مكان واحد ، وإنما يفاجئنى الشخص بالتجوال فى المكان ، وكأنه حديقة عامة ، على الرغم من أنه يحوى كل أشيائى ، التى قد لا أرغب فى أن يطلع عليها أو يراها أحد ..

وما يفعلونه ينتهك حريتى إلى أقصى حد ..

ويؤذى مشاعرى بشدة ..

فالمفترض ، طبقًا لما تقوله التقاليد ، والأخلاقيات ، وقواعد الذوق ، وتعاليم الدين أيضًا ، ألا ينهض الضيف من مكانه ، أو يجولُ فى مكان لا يخصّه ، إلا بناءً على إذن من صاحبه ..

وإذا قيل له أن يرجع ، فعليه أن يرجع فورًا ..

دون اعتراض ..

أو غضب ..

ولكن أحدًا لا يبالى بهذا ..

أو حتى ينتبه إليه ..

وذات مرة ، راودتنى فكرة أن أضع لافتة فى كل مكان ، تطلب من الجالس ألا يتبعنى فى مكتبى ، حتى ولو كنت وحيدًا ..

ولكننى استحييت أن أفعل ..

ثم إنه ليس من حق الآخرين إفساد ذوق المكان ، حتى أجبرهم على الالتزام بقاعدة أخلاقية بسيطة ..

والأمر ما زال مستمرًا ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

بل وربما كان هو السبب الرئيسى لكتابتها ..

وهذا أيضًا استمرار للقتال ، من أجل محبوبتى ومعشوقتى الأولى فى هذا الكون ..

حريتى .

د . نبيل فاروق

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

مذكرات طبيب
فى صعيد مصر الجوانى

الحلقة الثالثة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

٢ ـ حجَّاج ..

أخيرًا انزاحت الغمة ، ورحل الدكتور (محمد) ، عائدًا إلى (الإسكندرية) ، وأصبحت أنا طبيب الوحدة الأوَّل ، ومديرها ..

ودعونى أعترف لكم (دون تعذيب أو إهانات) ، بأن للمناصب بريقها ، ففى مثل عمرى آنذاك ، الذى لم يبلغ الخامسة والعشرين بعد ، كان من المبهر أن يحمل المرء لقب (البيه المدير) ، وأن يعامله الكل ، فى رواحه وغدوه ، بناء على اللقب والمنصب وبريقهما ..

ولكن نظرة واحدة إلى لائحة العمل ، جعلتنى أصاب بهلع شديد ، وبعقدة دائمة من كلمة (المدير) هذه ، وربما حتى يومنا هذا ..

فطبقًا لموقعى ، ونظرًا لأننى الطبيب الوحيد ، فى دائرة نصف قطرها سبعة جبال ونصف ، كنت أتولى (رسميًا) ، منصب مدير الوحدة الصحية ، ومدير الطب الوقائى ، ومدير المعامل ، ومدير الصيدلية ، ومدير مكتب الصحة ، ومدير قسم الطب الشرعى ، ومدير المخازن ، ومدير المبيعات ، ومدير المشتروات ، و .. ، و ..

ويسعدنى هنا أن أتقدَّم بالشكر لوزارة الصحة (العبقرية) ؛ لأنها كانت رحيمة بنا للغاية ، فلم تفرض علينا منصب الحانوتى ، أو مدير التموين ، أو حتى حامل الكوز (شوف الذوق !) ..

ومنذ اليوم الأوّل ، بدأ (حجاج) تحركاته ..

و (حجاج) هذا لمن نسى ، هو جلالة كـاتب الوحدة ، بكل جبروته وهيمنته ، وسيطرته الكاملة على عقول أهل القرية ، من صغيرهم إلى كبيرهم ..

ففى اليوم الأوّل للعمل ، فوجئت بالسيّد (حجاج) يحمل إلىّ كومة هائلة من الأوراق والملفـات والدفاتر ، وكلها تحتاج إلى توقيعى ، باعتبارى مدير كل شىء فى الوحدة الصحية ..

وكان الموقف مثيرًا للشك بالتأكيد ، وخاصة لو أخبرتكم ببعض أساليب التحايل ، التى يميل إليها (حجاج) ويهواها ، ويعتبرها جزءًا من تكوينه وشخصيته ، وهواية لا تلذّ الحياة بدونها ..

لذا ، فقد رفضت تمامًا التوقيع على أية ورقة ، قبل أن أقرأها وأدرسها جيّدًا ، وأعلم السبب الذى منع صديقى وزميلى الحبيب العزيز السابق ، بكل سخائه وكرمه الحاتمى ، من التوقيع عليها فى حياته .. احم أقصد فى أيام احتلاله للمنصب ..

ولم يرق هذا للسيد (حجاج) بالطبع مما جعله يقضى اليوم كله ، فى محاولة لإقناعى بالتوقيع على كل الأوراق ، مع وعد منه بشرح مضمونها فيما بعد ، وهو يحضر لى العيش والحلاوة فى سجن (قنا) العمومى ، عندما يصبح هناك الكثير من وقت الفراغ ، إثر الانتهاء من الهواية اليومية لتكسير الأحجار فى الجبل ..

وكان على أحدنا أن ينهار ويعترف ، ويستسلم للآخر ، ويقبل بوجهة نظره .. ولو أنكم تعاملتم يومًا مع (حجاج) ؛ لأدركتم أنه من الممتع أن يتسلّى المرء بتكسير الأحجار ، على أن يضطر للاستماع إلى إلحاحه المستمر ، الذى يتوقّف لحظة (باستثناء ساعات النوم ، والـ .. احم) ..

ولكن العجيب أننى احتملت ، وواصلت إصرارى ، وامتنعت عن الشراب والطعام والـ .. حتى انهار (حجاج) واعترف بأنها أوّل مرة يخسر فيها حرب الغلاسة هذه ..

وأخذت الأوراق كلها لمراجعتها ، ورفضت إعادتها للبك الكاتب، الذى أصرّ على استعادتها ، ما دمت أرفض التوقيع عليها ..

وكانت ليلة ليلاء ..

وعندما أشرق الصباح ، أدركت بكل أسف ، أننى قد ظلمت المسكين (حجاج) ..

إنه لم يكن نصابًا محتالاً كما تصوّرت ..

بل كان شيخ منصر (والمنصر هو العصابة الكبيرة) ..

فكل ورقة قدمها لى ، كانت تحوى تحايلاً ، أو تزييفًا ، أو بيانات خاطئة ، أو ـ وهذا هو الأرجح ـ قرارًا باستقالتى ، أو اعترافًا بقتل (مارلين مونرو) ، و(جون كيندى) ، وحتى خُط الصعيد ..

وفى اليوم التالى ، واجهته بكل هذا ، وأنا أنتظر منه أن ينهار مرة أخرى ، ويعترف اعترافًا تفصيليًا ، ولكننى فوجئت به يهزّ رأسه فى لا مبالاة ، ويؤكّد فى بساطة أنه لم ينتبه إلى هذه الأخطاء البسيطة غير المقصودة ، ثم أمسك الأوراق كلها ، ومزّقها ، وعاد إلى مكتبه ، وكأن شيئًا لم يكن ، وبراءة الذئاب فى عينيه ..

وهذا ما كان من أمر السيد (حجاج) ..

أما أهل القرية ، فقد راحت شهامتهم وأخلاقياتهم الطيبة تظهر ، فور رحيل الدكتور (محمد) ، واحتلالى منصبه ، ففى كل مجلس ، كانت الشتائم تنهال عليه من كل صوب ، ولا حديث للكل إلا عن نذالته ، وطمعه ، وبخله ..

ووجدت نفسى أتكمش فى مقعدى صامتًا ، وأتابع أحاديثهم فى ذعر ..

صحيح أننى أتفق معهم فى تلك الصفات الحسنة ، التى أضفوها على الزميل العزيز ، إلا أن أسلوبهم هذا جعلنى أفقد الثقة بهم وبمشاعرهم ، خاصة وأن معظمهم كان كثير الثناء والمديح للدكتور (محمد) ، أيام عمله فى البلاد ..

بل وكان أكثر المتحمسين لسبه ولعن أيامه ، هو الشخص نفسه ، الذى قدمه لى الدكتور (محمد) ، باعتباره أفضل وأقرب أصدقائه فى (أبو دياب شرق) كلها ..

وفى خيالى ، رحت أتصوّر نفس المجلس ، وقد تم استبدالى فيه بالطبيب الذى سيأتى من بعدى ، والكل يصفنى بالنذالة والطمع والبُخل ، ويلعن أيام عملى السوداء ..

ومن هنا ، اتخذت قرارًا بعدم السماح بالإساءة إلى سلفى قط ، والتصدّى لهذا بكل الحزم والذوق والإصرار ، حتى يدرك الكل أنها ليست الوسيلة المثلى للتقرّب إلىّ ، أو كسب ودى وصداقتى..

والواقع أنه كان لدى سبب آخر خفى وخبيث ، لمنع الحديث عن الدكتور (محمد) ؛ إذ إن مجرّد ذكر اسمه كان يعيد إلى ذهنى ذكريات جميلة ممتعة ، تكفى لأن تهاجمنى كل كوابيس الدنيا ، عندما يأتى المساء ..

وللسبب نفسه ، دعونا نتوقّف عن الحديث عنه هنا .. وهناك ، وفى أى مكان من العالم الحر ، وغير الحر ، والمحلى والمستورد ، وحتى عالم المرأة ..

المهم أننى قد أصبحت مدير الـ .. والـ .. والـ .. ، وصرت المسئول عن كل شىء فى القرية ، وكل الزمام التابع لها ..

وكان هذا يضيف إلى عبئًا جديدًا ، إذ إننى ، فى أيام العز ، كنت أعمل لنصف الشهر فقط (على نحو غير رسمى) ، ويتولّى زميلى النصف الآخر ، أما الآن ، وبعد أن صرت وحيدًا منفردًا ، كان من الطبيعى أن أعمل طوال الوقت ، وأن أضطر لأكل (الويكة) والملوخية طوال الشهر ، باستثناء ستة أيام كل شهرين ، وهى كل الإجازة المتاحة لبؤساء الأطباء أمثالى ، وخاصة أولئك الذين يقيمون ويعملون فى منتجعات جبلية فاخرة ، مثل (أبودياب ريزورت) ..

وفى بطء وحذر ، رحت أستكشف حدود منصبى .. احم .. أقصد مناصبى الجديدة ، وأراجع ما درسناه عن الإجراءات والإداريات ، ما دمت سأقضى فترة طويلة بصحبة الرجل الذئب .. أعنى السيد (حجاج) ، الذى يحفظ كل هذا ، بحكم خبراته الطويلة ، التى تزيد على خمسة عشر عامًا ، معظمها فى الوحدة نفسها ..

ومع مرور الوقت ، أدرك الذئب هذا ، ولأنه يهوى اللعبة ويعشقها ، فقد راق له ما أفعله ، وانتعش لإصرارى على القتال ، وراح يسنّ أنيابه ، ويبرز مخالبه ، استعدادًا للجولة الأولى ، باعتبارى ، مهما فعلت ، مجرّد تلميذ فى مدرسة الذئاب الابتدائية المشتركة ، التى يعتبر نفسه ناظرها ومديرها ، ووزير التربية والاحتيال فيها أيضًا ..

وكوسيلة لإثبات تفوّقه وبراعته ، أبدى استياءه ذات يوم من الثلاّجة القديمة فى مسكنى ، وأخذ يقنعنى بطلب أخرى جديدة ، من الإدارة الصحية ، باعتبار أن هذا حقى كطبيب مقيم ، وراح لثلاثة أيام متوالية يتغزّل فى الثلاّجات الجديدة ، التى وصلت إلى مديريات الشئون الصحية بالمحافظة ، والتى تعمل بالكهرباء ، والغاز ، والبطارية ، وحتى بالفحم ، لو اقتضى الأمر .

وصدقته أنا (توقف عن الضحك .. أرجوك) ..

وبكل الحماس ، أرسلت طلبًا رسميًا للإدارة الصحية ، لتزويدنا بثلاّجة جديدة ، وحمل (حجاج) الطلب بحماس أكثر إلى (قنا) ، وعاد ليؤكّد لى أن كل شىء تمام ، وأنه قد عاين الثلاجة الجديدة بنفسه ، ووجدها رائعة ، وأنه يمكننا أن نصنع بوساطتها كل ما لذ وطاب ، من الآيس كريم ، بكل أنواعه المعروفة فى الصعيد .. الذرة ، والبطاطا ، والطين ..

وانتظرت فى شغف وصول الثلاّجة الجديدة ..

وانتظرت ..

وانتظرت ..

وأخيرًا ، وبعد أن فاض بى الكيل ، سألت (حجاج) بك عن الثلاجة الجديدة ، التى تعمل بوسائل متعددة ، خاصة وأن الثلاجة القديمة قد صارت تعمل أيضًا بوسائل متعدّدة ، فى الآونة الأخيرة ، فهى تعمل بصعوبة ، وبالعافية ، وبدعاء الوالدين ..

وهنا رأيت ابتسامة الذئب ، التى يتحدثون عنها فى الروايات ..

ابتسامة كبيرة ، واسعة ، ظافرة ، شامتة ..

وفى هدوء ، هبط (حجاج) إلى مكتبه ، وعاد حاملاً دفتر المخازن الضخم ، وقدَّمه إلىَّ ، قائلاً فى حزم :

ـ قم بعمل جرد للمخازن ، واتهمنى بالاختلاس .

لم أفهم ما يقصده بالضبط ، فسألته فى حيرة وحذر :

ـ أفعل ماذا ؟!

هزَّ كتفيه ، اللذين يستند إليهما رأسه ، وهو يقول بابتسامة كبيرة :

ـ أنت مدير المخازن ، وأنا أمين المخازن ، ولقد تسلَّمت الثلاجة الجديدة بالفعل ، ونقلتها فورًا إلى منزلى فى (الأقصر) ، والمطلوب منك ، حتى تحمى نفسك ، وتخلى مسئوليتك ، أن تقوم بعمل جرد مفاجئ للمخازن ، وتتهمنى رسميًّا باختلاس الثلاَّجة الجديدة .

ومما يثبت أننى كنت مجرَّد ذئب فى (k.G.1) ، فى مدرسة (حجاج) بك ، هو أننى قد حدَّقت فى وجهه بدهشة كبيرة ، وأنا أهتف :

ـ ولماذا يا (حجاج) ؟! أعد الثلاجة ، وسنتجاهل كل هذا .

فوجئت به يهتف بسخرية ذئبية :

ـ أعيدها ؟!

ثم راح يقهقه ، ويقهقه ، ويقهقه ، حتى تصوَّرت أننى مهراجا هندى ، لا ينقصنى سوى الفيل الأبيض ، الذى يستبدلون به فى الصعيد العجل الأبيض (لظروف بيئية خاصة) ، قبل أن يقول بكل سخرية الذئاب :

ـ إنها ثلاَّجة رائعة ، لا مثيل لها فى الأسواق ، وثمنها ، من الناحية الرسمية ، لا يزيد على الألف جنيه ، وهذا يعنى أنه ـ طبقًا للقانون ـ لا بد أن يقتصر أمر اختلاسها على جزاء إدارى ، مع خصم الثمن من راتبى ، والقانون لا يمنح الحكومة الحق فى خصم ما يزيد على ربع المرتب ، مهما بلغت كمية الخصومات ، وهذا يعنى أننى قد حصلت على ثلاجة فريدة ، بدون مقدم ، وبقسط شهرى يساوى صفر ، لأن رُبع مرتبى يتم خصمه بالفعل ، بسبب أمور سابقة ، وأنا أعتبره نفقة الحكومة ، تأخذه من راتبى ، وآخذ أنا فى المقابل كل ما يحلو لى من مخازنها .

قلت ذاهلاً :

ـ وماذا عن الجزاء الإدارى ؟!

مال نحوى ، قائلاً بلهجة مشفقة ، وبأسلوب أستاذ كبير ، يلقِّن تلميذه الصغير درسًا جديدًا :

ـ وماذا عنه ؟! أنا مجرَّد كاتب وحدة صحية ، فى قلب الجبل .. ما الذى يمكن أن يفعلوه بى ، أسوأ من هذا ؟!

وتعلّمت الدرس الأوّل ، على يد (حجّاج) ..

فبدون عقاب رادع ، لا يمكنك أن تمنع ارتكاب الجرم أبدًا ، وأن أكثر ما يغرى بمخالفة القانون ، هو القانون نفسه ، لو أنه لا يعاقب الخطأ على نحو كاف ومناسب ..

درس ممتاز ، من ذئب مفترس ..

ولكنه لم يكن أفضل درس تعلّمته ، على يد (حجاج) ، ولا آخر درس ..

فطوال اثنى عشر شهرًا ، عشتها كمدير للوحدة الصحية فى (أبودياب شرق) ، تلقيت من صراعى مع (حجاج) عشرات الدروس ، التى أفادتنى طوال عمرى ، فى حياتى وعملى ..

ولعل أهم هذه الدروس هو ذلك الدرس ، الذى تلقيته ذات ليلة ، بسبب كلب ..

نعم .. كلب ..

فالوحدة الصحية ، التى أعمل بها ، كانت بخلاف كل الوحدات الأخرى ، مفتوحة على العالم الخارجى ، من قبل حتى أن يسمع العالم بالعولمة ، ولكن انفتاحها هذا كان لسبب مختلف تمامًا ، فقد كانت وحدة بلا سور يحيط بها ..

ولأنها كذلك ، كنا ننعم طوال الوقت بصحبة كل أنواع الحيوانات المعروفة (وأحيانًا غير المعروفة) ، وعلى رأسها

طبعًا الكلاب والحمير ، وعجل (البوهى) .. وللأخير قصة عجيبة جدًا ، سأقصها عليكم فيما بعد ..

المهم أنه من بين ضيوفنا (الحيوانات) ، كان هناك كلب نحيل أجرب يكرهه السيّد (حجاج) بشدة ، دون أى سبب واضح أو مفهوم ، ويبغض وجوده بغضًا لا مثيل له ، كما لو أنه كان ينازعه الرضاعة فى طفولته ..

وذات ليلة ، وبينما كنت أجلس فى حديقة الوحدة (وحديقة هنا لفظ مجازى تمامًا ، إلا لو اعتبرنا النباتات العشوائية والشوكية زهورًا يانعة) ، وفوجئت بالأخ (حجاج) يحضر الكثير من الطعام والشراب لذلك الكلب النحيل ، ويطرد الكلاب الأخرى ، حتى لا تشاركه طعامه ، ويحميه منها طوال الوقت ..

ولأننى كنت قد انتقلت فقط إلى (K.G. 2) ، فقد ابتسمت فى ارتياح ، وسألته :

ـ هل أنبك ضميرك على كراهيتك السابقة لهذا الكلب المسكين ؟!

ابتسم فى سخرية ، وهو يجيب :

ـ بل إننى أبغضه أكثر من ذى قبل ألف مرة .

سألته فى دهشة :

ـ ولكنك تختصّه بالطعام والشراب ، وتحميه من الكلاب الأخرى .

ضحك ضحكته الذئبية الشيطانية ، وكأنما يسعده أننى لم أفهم ، قبل أن يقول بلهجة أخافتنى :

ـ إننى أفعل هذا ، حتى تكرهه الكلاب الأخرى ، مثلما أكرهه أنا ، بحيث تهاجمه وتوسعه ضربًا ، فور خروجه من هنا ، وهكذا ينعزل وينزوى ، ولا يجد الراحة فى أى مكان بالأرض ..

والواقع أن جوابه هذا قد أصابنى بالذعر والهلع ..

ألهذا الحد تبلغ طاقة الشر ، فى نفس أى مخلوق ؟!

أيمكن أن يبلغ البغض والكراهية هذا المقدار ، دون مبرر أو سبب معقول ؟!

ولكننى وعيت الدرس ..

لا تسع قط للتميز عن الآخرين ، دون كفاءة حقيقية ، وإلا لنلت كل غضبهم وبغضهم وكراهيتهم ..

وإذا ما أردت أن تبث الكراهية والبغضاء فى نفوس الناس ، تجاه شخص بعينه ، فيكفى أن تقربه إليك ، وتختصه بما تمنعه عنهم ، وتمنحه امتيازات فائقة دون مبرر ..

وبعدها اتركه لهم ..

ترى هل استوعبت الدرس بدورك ؟!

فى الاتجاهين ؟!

العجيب ، على الرغم من كل هذا ، أن علاقتى بـ (حجاج) لم تكن سيئة ، كما قد يتصور البعض ..

لقد كانت أشبه بالحرب الباردة ..

فمع كوننا الوحيدين اللذين يعيشان فى المكان ، باستثناء الشغالتين (فهيمة) و (رقية) ، كان من الطبيعى أن نقضى معظم وقتنا معًا .. نتحدث ، ونتسامر ، ونتبادل الخواطر والأفكار ..

وباستثناء أوقات التحايل والخداع ، كان (حجاج) صعيديًا شهمًا ، كريمًا ، يولينى اهتمامًا كبيرًا ، ويقلقه أمر راحتى وطعامى وشرابى ، حتى إننى تصورت أن روح الذئب الرضيع

في أعماقى قد راقت به ، وقرّر أن يتبنانى ، وأن يمنحنى كل خبراته الذنبية ، من الحضانة إلى الجامعة ..

والحديث عن (حجاج) هذا يحتاج إلى كتاب كامل ، إذ كانت شخصيته مركّبة معقّدة ، يمتزج فيها الذئب بالحمل ، فلا يمكنك أن تتبيّن أحدهما من الآخر ، فى معظم الأحيان ..

وهو ، فى معظم الأحيان يسعى لتحقيق أكبر ربح ممكن ، دون أن يسبب سوى أدنى الخسائر للآخرين (فيما عدا الخسائر المادية بالطبع) ..

ومن أطرف ما كان يفعله (حجاج) ، عملية شهادات التسنين ..

ففى تلك الفترة ، من بداية الثمانينات ، كانت لعبة السفر إلى بلدان البترول فى أوجها ، وكل شخص فى (مصر) يسعى للسفر ، حتى وإن حصل على عمل تافه وبسيط للغاية ..

وفى الصعيد ، كان كل مخلوق يحلم بوظيفة عامل أجرى ، فى سلة النفط ، وحتى يمكنه تحقيق ذلك الحلم العظيم ، كان من الضرورى أن يسافر ..

ولقد فوجئ كل صعيدى بأن السفر يستلزم إجراءً متعنتًا ، لم يستوعب أبدًا سر إصرار الدولية عليه ..

أن يمتلك جواز سفر ..

ومشكلة جواز السفر هى أنه يحتاج فى البداية إلى بطاقة شخصية ..

والبطاقة الشخصية تحتاج إلى شهادة ميلاد ..

وشهادة الميلاد عند النجار ، والنجار يريد منشار ، والمنشار .. معذرة .. أقصد ـ باختصار ـ أنه لم يكن هناك أحد من الكبار يمتلك شهادة ميلاد رسمية ، فى الصعيد كله ..

لذا ، كان من الضرورى أن يستخرج كل من يرغب فى السفر ، شهادة تسنين ، لتحديد عمره الافتراضى ، واستخراج شهادة ميلاد ، بناء على ذلك العمر الافتراضى ، مما يفسح الطريق أمام استخراج بطاقة شخصية ، وجواز سفر ، وتذكرة طائرة إلى بلاد النفط ..

وكانت فرصة ذهبية للأخ (حجاج) ، الذى أوهم الكل أن استخراج شهادة التسنين هذه يحتاج ـ من الناحية الرسمية ـ إلى عامين كاملين ، وأشاع هذه المعلومة المخيفة فى القرية كلها ، ثم أضاف إليها معلومة خفية ، تقول : إنه من الممكن اختصار هذه الفترة إلى ستة أشهر ، مقابل رشوة مقدارها مائتا جنيه ..

ولأن الكل يجهل كل شىء عن حقيقة الأمر ، فقد تهافت الكل على الشيخ (حجاج) ، وكل منهم يدفع الرشوة المطلوبة ، لاستخراج شهادة التسنين هذه ، فى ستة أشهر فحسب ..

المدهش والمضحك فى هذا الأمر ، هو أن الحد الأقصى ـ رسميًا ـ لاستخراج شهادة التسنين هذه ، كان ستة أشهر بالتمام والكمال ..

وهذا يعنى أن الأخ (حجاج) كان يتقاضى مبالغ الرشوة ، ويدسها فى جيبه ، ثم يترك الأوراق لتأخذ مجراها ودورها الرسمى ، دون أن يبذل أدنى جهد .. ورزق الهبل ..

وعلى الجانب الآخر من شخصيته ، فوجئنا ذات يوم بالشرطة تجرى تحريات سرية مكثفة فى القرية ، ولأنها سرية جدًا ، فقد عرفنا أن وريث أحد أبناء (أبو دياب شرق) ، والذى يقيم منذ سنوات طوال فى (القاهرة) ، قد استخرج شهادة وفاة عمه ، واتهم أبناء عمه بتزويرها ، باعتبار أن العم قد توفى منذ سنوات طوال ، وليس منذ عامين فحسب ، كما تقول الشهادة المزوَّرة ، ثم دلَّل هذا بأن هناك شهادة وفاة أخرى للعم ، مستخرجة من سجل مدنى (البدرشين) ، منذ عشرة أعوام ..

ومع معرفة الخبر ، بدا (حجاج) متوترًا عصبيًا ، حتى إننى سألته عما إذا كان هو الذى استخرج شهادة الوفاة المزوَّرة ، فاعترف لى بصحة ظنونى ، ولكنه أكَّد أنه لا يحمل أية مسئولية قانونية ، حيث إن الدكتور (أحمد) ، طبيب

الوحدة فى ذلك الحين ، يعدّ من الناحية القانونية ـ المسئول رقم واحد ، لأنه من المفترض أنه قد فحص الجثة وحدَّد سبب الوفاة ، قبل أن يضع توقيعه على الشهادة ..

ولمن لا يعلم ، فهذا لا يحدث فى معظم قرى الصعيد ، أو لم يكن يحدث ، أيام كنت أنا هناك ..

فالناس فى قرى الصعيد لا تعترف كثيرًا بالرسميات ، لذا فما إن يتوفى أحدهم ، حتى يقوموا بدفنه ، ويقيموا العزاء (لو لم يكن ضحية عملية ثأر) ، ثم يأتون بعد أسبوع أو أسبوعين لاستخراج شهادة الوفاة ، وكأنها بطاقة تموين أو شهادة تموين ، يمكن استخراجها فى أى وقت ..

ولأنه من المستحيل أن تغير العادات الموروثة ، وخصوصًا فى منطقة شديدة التحضُّر كهذه ، كان لا بد أن يتكيَّف الأطباء مع هذه العادة غير الطبيعية ، لذا فكلنا هناك نعتمد على التحريات ، بدلاً من الكشف الطبى ، فنسأل ونتقصَّى ، حتى نعرف أسباب الوفاة المفترضة ، ثم نستخرج الشهادة بعدها ..

وهذا بالطبع إجراء غير قانونى ، وحتى غير منطقى ، ويفتح الباب على مصراعيه للخداع ، والتمويه ، وحتى للجريمة والقتل ، ولكن الكل مضطر للسير فى هذا الأمر ، حتى يمكن تغيير عقول الأخوة الصعايدة ، أبناء قرى الوجه القبلى ..

ولهذه الأسباب ، تورَّط الطبيب السابق الدكتور (أحمد) ، الذى لم ألتق به قط ، فى شهادة الميلاد المزوَّرة هذه ، وصار من المحتمل أن يتورَّط فى جناية تزوير محرَّر وفاة أيضًا ، وهى تهمة كفيلة بتدمير مستقبله تمامًا ..

لولا أن اختفى (حجاج) فجأة ..

اختفى لثمان وأربعين ساعة فحسب ، ثم عاد مبتسمًا ، متورِّدًا ، رافع الرأس (بمعنى أن درجة ميل رأسه على كتفه أصبحت أقل) ، وحضر إلى مسكنى ، قائلاً فى ظفر :

ـ المشكلة انتهت .

سألته فى لهفة ودهشة :

ـ كيف ؟!

فوجئت به يناولنى الورقة الأصلية ، التى تحمل بيانات شهادة الوفاة ، من مكتب صحة (البدرشين) ، وهو يجيب فى زهو :

ـ لقد التقيت بكاتب صحة (البدرشين) ، وأفهمته أننا زميلان ، فمزَّق الورقة من الدفتر الرئيسى ، وأعطانى إياها ، وهكذا لن تجد الشرطة دليلاً رسميًّا واحدًا ، يثبت أن الرجل قد مات فى (البدرشين) بالفعل ..

ولقد أدهشنى هذا حينذاك ..

وأفزعنى ..

ألهذا الحد بلغ الاستهتار والفساد والإهمال ، فى مكاتبنا الحكومية الرسمية ؟!

ألهذا الحد بلغت الخسَّة والضعة ؟!

ولكن هذا أيضًا كان درسًا جديدًا ..

فالذئاب كلها تتآزر وتتعاون ، إذا ما فاحت رائحة الخطر ..

على عكس الحملان ..

ما إن يظهر الذئب بينها ، حتى تتدافع منفردة فى كل صوب ، ولا هم للواحد منها سوى أن يفرَّ بجلده وينجو بحياته ..

وكما سبق أن أخبرتكم من قبل ، كان (حجاج) هذا ذئبًا وحملاً فى آن واحد ..

ولوصفه بالحمل هذا حكاية واحدة ، لا يمكننى أن أتمالك نفسى من الضحك ، كلما تذكَّرتها ، أو جالت بخاطرى ..

فذات ليلة ، وفى أثناء إحدى فترات التوتر وحرب الثأر ، بين العرب والهوَّارة ، خرجت مع (حجاج) لزيارة أحد أصدقائى من العرب ، وكان هذا يحتم أن نقطع ـ سيرًا على الأقدام ـ أحد النجوع التابعة للهوَّارة ..

وكنا نحفظ القواعد ، الخاصة بتلك الفترات الحربية ..

لا بد أن نرتدى القمصان والسراويل ، لنثبت أننا غرباء على القرية ، وأن نسير فى منتصف الشارع بالضبط ، وألا ننحرف يمينًا أو يسارًا ..

ولقد فعلنا هذا فى طريق الذهاب ، حتى يرانا القنّاصة ، المختبئون فوق أسطح المنازل ، وسط الحطب وعيدان القصب ، لحماية المكان ورصد أية محاولة للهجوم ..

وكانت ليلة لطيفة جدًا ، قضيناها فى منزل صديقى العربى (فتحى) ، وتعالت خلالها ضحكاتنا ، على الرغم من حالة التوتر التى تسود القرية ..

ثم حانت لحظة العودة ..

ولأن السهرة كانت ممتعة ، فقد نسى الأخ (حجاج) القواعد ، وانحرف إلى شجرة على جانب الطريق ، ليقضى حاجته ..

وهنا فوجئنا باطلاق رصاصات مدفع آلى ، تشق سكون الليل ، وتضرب الأرض ، على مسافة متر واحد منا ..

وبكل رعبه وذعره ، صرخ (حجاج) ، وهو يخرج من خلف الشجرة ، رافعًا ذراعيه إلى أعلى ، ومتقافزًا على نحو مضحك :

ـ أنا (حجاج) .. أنا (حجاج) .

توقف إطلاق النيران على الفور ، وسار صمت رهيب ، دون أن يعلن أحد عن وجوده ، أو يعتذر ، أو حتى يفتح أى شخص باب أو نافذة منزله ..

وبخطوات سريعة ، رحنا نبتعد أنا و (حجاج) عن منطقة الخطر ، فى اتجاه الوحدة التى لاحت من بعيد ..

ولأننى كنت أعلم أنه يحتاج بشدة إلى قضاء حاجته ، فما إن تجاوزنا دائرة النجع ، حتى قلت له :

ـ لقد خرجنا من نجع الهوّارة .. يمكنك أن تقضى حاجتك الآن .

انعقد حاجباه ، وغمغم فى عصبية :

ـ فيما بعد .. فيما بعد .

استوقفته ، قائلاً :

ـ ولماذا فيما بعد ؟! هذا المكان مناسب ..

زمجر فى عصبية أكثر ، وهو يقول :

ـ لم تعد هناك ضرورة .

عندئذ فقط ، لاحظت ذلك البلل فى سرواله ، وأدركت أنه لم يعد بحاجة إلى قضاء حاجته بالفعل ، وأن الحمل فى شخصيته قد برز ، بعد أن غرق الذئب ..

غرق فى شبر من الماء ..

أو من الـ ..

وربما كان لهذا الحادث أكبر الأثر ، فى أن أفقد نصف مخاوفى وقلقى تجاه أستاذ الذئاب وذئب الأساتذة (حجاج) ، وأنا استثمر ذهنى فى أمور أخرى فى الوحدة الصحية ، خاصة وأن سلفى قد ترك خلفه عشرات الأمور المعلّقة ، التى تحتاج إلى الحسم والبت ..

وكان هذا يعنى أن أبدأ حربًا جديدة وعنيفة..

حرب إثبات الذات .

* * *

(وللحديث بقية ..)

بشرة بيضاء .. (قصة قصيرة)

خفق قلب (نهلة) فى قوة ، وهى تلتقط أنبوبة الكريم الجديد من الصيدلى ، وراحت تلهث فى انفعال عجيب ، أدهش الصيدلى نفسه ، وهى تنقده الثمن ، ثم تضمّ الأنبوبة إلى صدرها فى سعادة جمة ، وتهرع بها إلى منزلها ..

وحتى فى منزلها ، بدت الدهشة على وجه أمها ووالدها ، مع تلك الابتسامة الكبيرة التى تملأ وجهها دقيق الملامح ، ومرحها الزائد عن الحد ، وهى تلقى عليهما التحية ، ثم تهرع إلى حجرتها ، وتغلق بابها خلفها فى إحكام ..

وفى دهشة حائرة ، غمغم والدها :

ـ ماذا أصاب البنت ؟! هل ربحت جائزة ما ؟!

تطلّعت الأم فى حنان إلى باب الحجرة ، قبل أن تغمغم بتسمة :

ـ ليست الجائزة ما يسعد البنات ، إلى هذا الحد .

هتف مستنكرًا :

ـ وما الذى يمكن أن يسعدهن إذن ؟!

اتسعت ابتسامتها ، وهى تقول فى خفوت حنون :

ـ الرجال لا يمكنهم فهم هذا قط .

مطّ الأب شفتيه ، وأشاح بوجهه ، ليدفنه فى جريدة الصباح ، متمتمًا :

ـ يا للنساء !

أما (نهلة) ، فقد راحت تدور فى حجرتها بسعادة غامرة وكأن أنبوبة الكريم ، التى ابتاعتها من الصيدلية ، تحوى كل أسرار السعادة والهناء ، فى الكون كله ..

وبكل لهفتها وسعادتها ، انطلق عقلها يبحث عنه ..

عن ذلك الذى خفق له قلبها لأوّل مرة ، منذ وعت عيناها الدنيا ..

(أيمن) ..

يا إلهى .. كم تحبه ..

كم تذوب عشقًا وسعادة ، كلما وقع بصرها عليه ..

إنه ، من وجهة نظرها ، مثال للشاب الكامل ، وفارس الأحلام ، الذى تحلم به كل فتاة ..

وسيم ، أنيق ، هادئ ، مهذّب ، وابن لعائلة طيبة ميسورة الحال ..

أية فتاة فى الدنيا ، يمكن أن تسقط أسيرة حبه ، من النظرة الأولى ..

من وجهة نظرها طبعًا ..

ولكن المؤسف ، فى كل هذا ، هو أنه لا يشعر بوجودها قط ..

صحيح أنه جم النشاط ، له روح اجتماعية طيبة ، وصداقات بلا حدود ، داخل الجامعة وخارجها ..

إلا أنه لم يشعر بوجودها ولو مرة واحدة ..

ربما لأنها بطبيعتها خجولة منطوية ، لا تميل إلى الاختلاط أو الاجتماعيات ..

أو لأنها لا يمكن أن تلفت انتباه أحد ..

وخصوصًا من كان محاطًا بالاهتمام مثله ..

وما إن جال هذا بخاطرها ، حتى توقَّف خفقان قلبها ، وفوجئت بدلو من المرارة ينسكب فى أعماقها ..

وبكل تلك المرارة ، مالت تتطلَّع إلى وجهها فى المرآة ..

كانت ضئيلة الجسد ، دقيقة الملامح ، عادية القسمات ، كما أنها كانت ، وهذا هو الأسوأ من وجهة نظرها ، خمرية البشرة ..

ومن المؤكَّد ، وفقًا لتقديرها ، أن فتاة خمرية مثلها ، لا يمكن أن تلفت انتباه شاب وسيم مثله ، محاط دومًا بالبيضاوات الجميلات ، اللاتى تصلح الواحدة منهن للعمل كنجمة سينمائية ، تخلب لب المشاهدين فى كل مشهد ..

وهى تؤمن تمامًا ، بحكم مشاهداتها وتجاربها المحدودة ، أن الرجال فى العالم العربى ، لا يميلون أو ينبهرون إلا ببيضاوات البشرة فحسب ..

كثيرًا ما كانت تسمع الكل يمتدحون فتاة ما ، ويصفونها بأنها بيضاء كالقشدة ..

حتى أمها ، كانت تصف دومًا جارتهم (دلال) بهذه الصفة ، للتأكيد على جمالها وحسنها ، وتبرير تهافت العرسان عليها ، قبل أن تبلغ العشرين من عمرها ..

وفى كل مرة يردِّد فيها أحد هذا ، كانت تتكمش فى أعماقها ، وتنزوى بمشاعرها ، وتخفى مرارتها وحزنها ، وهى تتطلَّع إلى بشرتها الخمرية ، التى لم توصف بالجمال قط ..

وحتى فى كل مرة تشاهد فيها مذيعات التليفزيون ، أو مقدمات البرامج ، أو حتى ممثلات السينما ، كانت تدرك أن البشرة البيضاء ، والبيضاء وحدها هى سر الحسن والجمال ..

والحب ..

ولكنها اليوم وجدت الوسيلة إلى عالم الجمال ..

ذلك الكريم الذى شاهدت إعلانه فى التليفزيون ..

الكريم الذى يمنح السمراوات والخمريات بشرة بيضاء ..

حتى فى الإعلان ، لم يهتمَّ الشاب بالفتاة إلا بعد أن اكتسبت بشرة بيضاء ..

هذا هو الجمال الذى يعترف به الكل ..

الجمال الحقيقى ..

وفى حماس ، أخرجت أنبوبة الكريم من علبتها ، وقرأت النشرة المصاحبة جيِّدًا ، ثم بدأت تدهن وجهها بالكريم ، وهى تحلم باليوم الذى تمتلك فيه سر الجمال والحسن ..

وبينما تحلم بهذا ، سمعت دقات على باب حجرتها ، مع صوت والدتها الحنون الدافئ ، وهى تسأل فى حذر :

ـ (نهلة) .. هل نمت ؟!

أسرعت تفتح الباب لأمها ، وهى تهتف بابتسامة كبيرة :

ـ بل أنا مستيقظة يا أمى .

تطلَّعت إليها أمها بحنان متسائل ، قبل أن تدلف إلى حجرتها ، وتجلس على طرف فراشها ، متسائلة فى حذر أكثر :

ـ كيف حالك ؟!

ضحكت (نهلة) ، قائلة :

ـ بخير .. هل أتيت فقط لهذا ؟!

ارتبكت الأم ، وحاولت أن تجد فى نفسها الجرأة ؛ لتلقى السؤال الحقيقى ، الذى يشغل ذهنها ، إلا أن لسانها تعلَّق فى حلقها ، وهى تدور فى الحجرة ببصرها فى حيرة ، و ..

وفجأة ، وقع بصرها على أنبوبة الكريم ، وكالغريق الذى تعلَّق بقشة ، التقطت الأنبوبة ، متسائلة :

ـ هل ابتعت كريمًا جديدًا ؟!

أومأت (نهلة) برأسها إيجابًا ، وهى تبتسم فى سعادة ، فألقت أمها نظرة على الكريم ، قبل أن تهتف فى دهشة :

ـ كريم لتبييض البشرة ؟! فيم احتياجك لشىء كهذا ؟!

هزَّت (نهلة) كتفيها ، وأشارت إلى وجهها ، قائلة :

ـ ما رأيك أنت ؟!

تطلَّعت إليها أمها لحظة ، ثم ابتسمت فى حنان ، مجيبة :

ـ رأيى أنك لست بحاجة إليه على الإطلاق .

ضايقتها عبارة أمها ، على الرغم مما فيها من حب ودفء ، فقالت فى عصبية :

ـ دعينا لا نخدع نفسينا يا أمى .. البشرة البيضاء علامة الجمال ، فى (مصر) على الأقل .

هزَّت أمها كتفيها ، قائلة :

ـ ربما ، ولكن لكل ذوقه ، وكما يقولون فى الأمثال الشعبية : « لكل نوع من الحبوب كيَّاله » ..

قالت (نهلة) بعصبية أكثر :

ـ وماذا لو أن كل الكيَّالين لهم منظور واحد ؟!

ابتسمت أمها ، قائلة :

ـ مستحيل ! لو أن هذا صحيح لما انبهرت (مصر) كلها ، بل وانبهر العالم كله ذات يوم بالفنانة (سعاد حسنى) ، واعتبروها رمزًا للجمال والحسن ، وهى خمرية البشرة مثلك .

قالت فى إصرار :

ـ إنها حالة خاصة .. يكفى أنها كانت نجمة سينمائية .

قالت أمها فى سرعة :

ـ وكيف أصبحت كذلك ، لو أن الكل يهوى صاحبات البشرة البيضاء فحسب ؟!

أجابتها بسرعة أكبر :

ـ لأنها موهوبة .

تنهَّدت الأم ، وكأنما تعلن يأسها من استمرار المناقشة ، ونهضت ، قائلة :

ـ افعلى ما يروق لك يا (نهلة) .. إنها حياتك وأفكارك يا بنيتى ، ولكن صدقينى .. أجمل ما فى الإنسان هو ما خلقه عليه الله (سبحانه وتعالى) ، وبه وحده سيجد قسمته ونصيبه ..

قالتها الأم ، وخرجت من الحجرة ..

ومن المشكلة كلها ..

ولكن (نهلة) لم تقتنع ..

كيف يمكن أن ينهى حوار بسيط ، كل ما جمعته فى أفكارها وأعماقها لسنوات وسنوات ؟!

كيف ؟!

إنها ستواصل استخدام ذلك الكريم الجديد ، حتى تحصل على البشرة المطلوبة ..

البشرة البيضاء ..

وكم أسعدها أن أتى الكريم مفعوله رويدًا رويدًا ..

فبعد أسبوع واحد ، لاحظت أن بشرتها صارت أكثر ضياءً ..

وبعد أسبوعين ، أصبحت قمحية ..

ثم بيضاء ..

حتى زملاء الدراسة كلهم لاحظوا هذا ..

كلهم أثنوا على حسنها ، وجمالها ، وبياض بشرتها الجديد ..

كل زميلاتها السمراوات سألنها عن اسم الكريم واستخداماته ..

ومع كل هذا التهافت ، اكتسبت نفسها ثقة كبيرة ..

ثقة جعلتها تعترض طريق (أيمن) ذات صباح ، وتسأله :

ـ أستاذ (أيمن) .. أما زالت هناك أماكن شاغرة ، فى رحلة (القناطر) ؟!

رأت الدهشة ترتسم على وجهه ، وتنتقل إلى صوته ، وهو يسألها بأسلوبه المهذَّب :

ـ هل ترغبين فى الانضمام إليها ؟!

كانت هذه أوَّل عبارة يتبادلانها ..

وأول مرة يبدى فيها اهتمامًا بها ..

يومها لم يخفق قلبها فحسب ، وإنما راح يرقص طربًا ، وكأنها ملكت الدنيا كلها ..

ولقد استعدَّت لتلك الرحلة بكل ما تستطيع ..

انتقت أفضل وأجمل ثيابها ..

وصفَّفت شعرها عند مصفِّف شعر معروف ..

ووضعت المزيد من الكريم ..

وعندما ذهبت إلى (القناطر) فى أوَّل رحلة تنضمّ إليها ، منذ التحاقها بالجامعة ، كانت تمتلك بشرة بيضاء بحق ..

وثقة بلا حدود ..

ومع نهاية الرحلة ، اتجه هو إليها ، وهو يبتسم ابتسامة عذبة ، ويقول :

ـ آنسة (نهلة) .. اسمحى لى أن أشكرك، على نشاطك وحيويتك وروحك العالية فى الرحلة .. لقد كنت بحق أحد أسباب نجاحها ..

لم يكتف بهذا القول ، الذى فجَّر فى كيانها كل ينابيع الفرح والسعادة ، وإنما احتلَّ المقعد المجاور لها ، ليواصل حديثه معها ، طوال طريق العودة ..

تحدثا حول العديد من الأمور ..

الدراسة ..

والسياسة ..

والفن ..

والرياضة ..

وحتى عن الحب ..

وعندما وصلا إلى الكلية ، صافحها فى حرارة ، قائلاً :

ـ أشكرك مرة أخرى يا آنسة (نهلة) ..لقد كان الحديث معك ممتعًا بحق .. أرجو أن أجد الفرصة لتكرار هذا .

لا يمكن أن تبلغ السعادة هذا الكم أبدًا ..

إنه لم يشعر بوجودها فحسب ، وإنما راق له مجلسها أيضًا ..

لقد أعجب بها ..

بل وربما أحبها ..

كم كانت على حق ، عندما منحت نفسها تلك البشرة البيضاء ..

كم كانت على حق ..

تضاعفت لديها تلك القناعة ألف مرة ، خلال الأسابيع التالية ..

لقد تكرَّر لقاؤهما ، وتكرَّرت أحاديثهما مرات ومرات ..

ليس هذا فحسب ، وإنما صار من المعتاد أن تراهما معًا ، منهمكين فى الحديث ، طوال أوقات الفراغ فى الكلية ..

ومع مرور الوقت ، أدرك الكل أن (أيمن) يحب (نهلة) ، وأنها بدورها غارقة فى حبه حتى النخاع ..

ولكن أحدهما لم يصارح الآخر بهذا قط ..

حتى كانت تلك اللحظة ..

لحظة عادية ، مثل كل لحظات مناقشاتهما ، توقَّف هو فيها فجأة عن الحديث ، وتطلَّع إلى عينيها لحظة ، بكل حب وحنان ودفء الدنيا ، قبل أن يقول دون مقدمات :

ـ (نهلة) .. أنا أحبك ..

لم يخفق قلبها لقوله ..

ولم يرقص بين ضلوعها فرحة وسعادة ..

لقد وثب فجأة من جسدها ، واستقرَّ بين كفيه ..

وفى عينيه ..

وقلبه ..

كل ذرة فى كيانها أعلنت فرحتها وسعادتها ولهفتها وحبها ..

وكان من الطبيعى أن يفهم ..

وأن يثب قلبه بدوره بين يديها ..

وبكل حب الدنيا ، مال نحوها ، وتطلَّع إلى وجهها ، الذى اصطبغ كله بحمرة الخجل ، هامسًا :

ـ هل تعلمين .. أنت صورة مجسَّمة لفتاة الأحلام ، التى أبحث عنها منذ حداثتى .. جميلة ، رقيقة ، مهذَّبة ، مثقفة ، واعية ، ومن أسرة طيبة .. كل صفة تمنيتها فى زوجة المستقبل ، فيما عدا ..

بتر عبارته بغتة ، وكأنما وجد أنه من غير اللائق أن يكملها ، وامتدَّت أصابعه تتسلَّل إلى كفها ، فسألته فى اهتمام :

ـ فيما عدا ماذا ؟!

بدا عليه الخجل ، وهو يغمغم :

ـ أمر بسيط ، لا يستحق الذكر .

هتفت بحرارة عجيبة :

ـ أخبرنى إياه .. أرجوك .

ارتبك أكثر ، وحاول أن يبتسم فى خجل وحرج ، ثم لم يلبث أن هزَّ كتفيه ، وخفض صوته ، وهو يجيب :

ـ فتاة أحلامى كانت دائمًا خمرية البشرة .

اتسعت عيناها بدهشة بالغة ، وحدَّقت فى وجهه بذهول ، جعله يرتبك أكثر وأكثر ، ويلوِّح بيده ، قائلاً :

ـ ولكن لا بأس بالبشرة البيضاء .. ستصبح بالنسبة لى أفضل بشرة ؛ لأنها بشرتك أنت ، و ..

قاطعته فى حزم :

ـ (أيمن) .. هناك أمر أريد أن أعترف لك به .

وفى تلك الليلة ، ألقت أنبوبة الكريم الجديد فى سلة المهملات ..

وتركت بشرتها تستعيد لونها الأصلى مع الوقت ..

لون الحب ..

الحقيقى .

١ ـ الأعماق ..

« يا للملل ! »

غمغم رجل الأعمال (صفوت البرديسى) بالكلمة ، فى ضجر شديد ، وهو يجلس فى استرخاء تام ، فوق مقعد وثير ، فى حديقة الفندق السياحى الشهير فى (الفيوم)(*)، وتثاءب فى قوة ، قبل أن يرفع قدميه على المقعد المقابل ، وأرخى القبعة القماشية التى يرتديها على عينيه ، اتقاءً لضوء الشمس ، متابعًا :

ـ قل لى بالله عليك ، ما الذى أتينا لنفعله هنا ؟!

ابتسم شريكه وصديق عمره (عاصم) ، وهو يجيب :

(*) الفيوم : محافظة تحتل منخفضًا صحراويًا ، غرب محافظة (بنى سويف) ، عاصمتها (الفيوم) ، تم ضمها إلى محافظة (بنى سويف) أكثر من مرة ، قبل أن تنفصل ، وتصبح مديرية قائمة بذاتها ، منذ عام (١٨٧٠م) ، أرضها غير مستوية السطح ، ويقع جزء كبير منها تحت مستوى البحر ، فى شمالها الغربى تقع بحيرة (قارون) ، يربطها بالوادى شريط ضيق من الأراضى الزراعية (فتحة اللاهون) ، يجرى فيها (بحر يوسف) ، الذى يروى المحافظة ، التى تشتهر بزراعة الأرز ، والموالح ، والتبن ، والعنب ، وبها الكثير من المناطق السياحية .

ـ المفترض أننا هنا لتهدئة أعصابنا ، والتفكير فى وسيلة للخروج من تلك الأزمة المالية .. هل نسيت ؟!

مطَّ (صفوت) شفتيه ، وهو يقول فى حنق :

ـ وكيف يمكننى أن أنسى شيئًا كهذا ؟!

ثم خفض قدميه ، واعتدل فى مجلسه ، وهو يتابع فى شىء من العصبية :

ـ لست أدرى كيف حدث هذا .. لقد كنا نسير على ما يُرام ، وكان المفترض أن تقفز بنا تلك الصفقة الأخيرة إلى القمة ، ولكن ...

بتر عبارته ، ليعض شفتيه فى مرارة ، ويهزّ رأسه فى عصبية ، جعلت شريكه (عاصم) يعقد حاجبيه ، ويقول فى لهجة ، حملت على الرغم منه لمحة صارمة :

ـ لو كان كل شىء يسير على ما يُرام ، لما حدث هذا .

استدار إليه (صفوت) بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ ماذا تعنى ؟!

انعقد حاجبا (عاصم) أكثر ، وحاول عبثًا العودة للاسترخاء فى مقعده ، إلا أن (صفوت) تابع بحدة أكثر :

ـ لقد فعلت ما فعلت ، كمحاولة لتحقيق أفضل وأكبر ربح ممكن للشركة .

تسلَّل الغضب إلى صوت (عاصم) ، وهو يقول :

ـ بتزوير فواتير الشراء ، ومحاولة خداع الجمارك والضرائب ؟!

لوَّح (صفوت) بذراعه ، هاتفًا :

ـ هذا ما يفعله الجميع .

أجابه (عاصم) ، وهو يبذل كل طاقته ، للسيطرة على أعصابه :

ـ انتشار الخطأ لا ينفى أنه خطأ .

صاح (صفوت) فى غضب :

ـ كلام سخيف ، وفلسفة بالية ، لم تعد تناسب الزمن وطبيعة العصر .. الكل يفعل ما أفعله ، كمحاولة لتحقيق أرباح مناسبة .. حتى الدولة تفعل بنا هذا .. هل نسيت تقديرات الضرائب الجزافية ، والإهمال فى نقل وتخزين ما نستورده ، و ...

قاطعه (عاصم) ، وقد عجز أخيرًا عن السيطرة على أعصابه :

ـ وماذا كانت النتيجة ؟! انكشاف الأمر ، ومصادرة البضائع ، وقضية قد ينهار معها كيان الشركة كله ، لو لم نحصل على الأموال اللازمة للتعويضات المطلوبة .

احتقن وجه (صفوت) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ مجرَّد سوء حظ .

نهض (عاصم) من مقعده فى حركة حادة ، وهو يقول :

ـ بل سوء تقدير ، وسوء تخطيط .

لوَّح (صفوت) بسبَّابته فى وجهه ، هاتفًا :

ـ اسمع يا (عاصم) .. لو أننا سنقضى ما تبقَّى من الأسبوع هنا ، فحذار أن ...

قاطعه (عاصم) فى صرامة محتدة :

ـ لا داعى يا (صفوت) .. لا داعى .. لست أظننى أستطيع قضاء ساعة واحدة أخرى بصحبتك .. سواء هنا أو فى (القاهرة) .. لقد كان مجيئنا إلى هنا مجرَّد محاولة أخيرة ، لإصلاح ما أفسدته بيننا ، بأسلوبك العصبى ، وأطماعك المنطلقة بلا حدود .

صاح (صفوت) :

ـ لو أن العمل معى لا يروق لك فـ ...

قاطعه (عاصم) فى صرامة شديدة :

ـ الوداع يا (صفوت) .

ثم استدار فى حدة ، وابتعد عنه بخطوات سريعة ، متابعًا :

ـ المحامى سيتصل بك ؛ لإنهاء إجراءات فضّ الشركة .

احتقن وجه (صفوت) بشدّة ، ولوّح بذراعه فى غضب ، هاتفًا :

ـ هذا لن يعفيك من دفع نصيبك من الخسارة والتعويضات .

تجاهل (عاصم) العبارة الأخيرة ، وهو يختفى داخل الفندق ، فاحتقن وجه (صفوت) مرة أخرى ، وهو يقول فى حدة :

ـ كيف يتخلّى عنى فى ظروف كهذه ؟! يا للحقارة !

عقد ساعديه أمام صدره ، وراح ينفخ فى غضب عصبى ، وهو يستعيد ما حدث .

لقد حاول بالفعل خداع الجمارك والضرائب ..

ولكن ماذا فى هذا ؟!

الكل يفعل مثله ..

كل التجار ..

وكل رجال الأعمال ..

ما ذنبه لو أن الأمور لم تسر كما يُرام ؟!

ضابط الجمارك كان نظيفًا ، ولم يقبل رشوته ..

مجرّد مصادفة !

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت منتصف النهار بعد ، وعلى الرغم من هذا فقد ترك مقعده ، واتجه إلى مقهى الفندق ، وطلب من النادل(*) كأسًا من الخمر ، إلا أن هذا الأخير هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ لا يمكننى تقديم شىء كهذا هنا يا سيِّدى .

انعقد حاجبا (صفوت) ، وهو يهتف :

ـ يا للسخافة !

سأله النادل فى حذر :

ـ ما رأيك بزجاجة مياه غازية ؟!

مطّ (صفوت) شفتيه ، مغمغمًا :

ـ مياه غازية ؟! كلاّ .. إننى أفضل قدحًا من الماء .

أحضر النادل الماء ، وسأله بابتسامة مرسومة ، وهو يضعه أمامه :

ـ هل تشعر بالملل هنا يا سيِّد (صفوت) ؟!

هزّ (صفوت) كتفيه ، قائلاً فى سخرية عصبية :

(*) الجارسون

ـ الملل فحسب ؟!

اعتدل النادل ، وهو يقول :

ـ ولكن (الفيوم) بها عشرات الأماكن السياحية الجميلة ، ولو أنك قرَّرت أن تخرج للنزهة ، فيمكننى أن أرشدك إلى أربعة أو خمسة أماكن رائعة .

زفر (صفوت) فى عصبية ، قائلاً :

ـ النزهة ؟! هذا آخر ما أفكِّر فيه يا رجل .. ما يهمنى بحق هو أن أجد وسيلة لتهدئة أعصابى .

ثم هزَّ رأسه فى قوة ، مستطردًا بحدة :

ـ آه لو كنا فى (الغردقة) .

سأله النادل فى اهتمام :

ـ ولماذا (الغردقة) ؟!

لوَّح بذراعه ، قائلاً فى حنق :

ـ على الأقل كنت سأغوص بعض الوقت .

ردَّد النادل فى حذر مندهش :

ـ تغوص ؟!

تنهَّد (صفوت) ، وأومأ برأسه ، قائلاً :

ـ الغوص هو الرياضة الوحيدة ، التى يمكننى أن أنسى خلالها كل متاعبى وتوتراتى .

ثم عاد يلوِّح بذراعه فى حنق ، هاتفًا :

ـ ولكن أين لى به هنا ؟

تردَّد النادل لحظة ، وكأنما يخشى التصريح بما لديه ، ثم لم يلبث أن قال فى حذر :

ـ لو أنك تحمل معك أجهزة الغوص ، فربما ..

اعتدل (صفوت) بحركة حادة ، وهو يهتف فى لهفة :

ـ ربما ماذا ؟! هل يوجد مكان صالح للغوص هنا ؟!

تلفَّت النادل حوله فى حذر ، قبل أن يميل على أذنه ، هامسًا :

ـ ربما ليس من الناحية الرسمية .

لهث (صفوت) بانفعال عجيب ، وهو يسأله فى خفوت :

ـ وماذا عن الناحية غير الرسمية ؟!

اعتدل النادل ، وابتسم ، قائلاً :

ـ لو أنك تحمل عدة الغوص ..

قاطعه (صفوت) فى لهفة :

ـ إنها دائمًا فى حقيبة السيارة ، وأسطوانات الأكسجين ممتلئة لحسن الحظ .

اتسعت ابتسامة النادل ، وهو يقول :

ـ عظيم .. فى هذه الحالة ، لدى صديق يمكن أن يوفِّر لك مكانًا للغوص

سأله (صفوت) بلهفة أكبر :

ـ أين ؟!

أشار النادل بيده إشارة عشوائية ، مجيبًا :

ـ هناك .. فى البحيرة .

تألَّقت عينا (صفوت) بتساؤل ملهوف ، فتابع النادل فى حزم :

ـ بحيرة (قارون) ..

وكانت هذه هى البداية ..

★ ★ ★

انتشرت أشعة الشمس الدافئة ، على سطح بحيرة (قارون) ، فى ذلك اليوم ، الثانى عشر من أكتوبر عام ١٩٩٢م ، وبدا مظهرها ، مع انعكاس الأشعة الذهبية عليها ، أشبه بتحفة فنية

مبهرة ، جعلت (صفوت) يغمغم ، داخل الزورق الذى يستقلّه :

ـ يا للروعة !

ابتسم النادل (مجدى) ، وهو يقول :

ـ ألم أقل لك .. لن تجد مكانًا فى العالم ، أجمل من بحيرة (قارون) .

تطلَّع (صفوت) مرة أخرى إلى البحيرة ، وربَّت على أسطوانات الأكسجين فى قاع الزورق ، وهو يسأل فى اهتمام :

ـ هل القاع صخرى أم طينى ؟!

ارتفع حاجبا (مجدى) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ عجبًا ! لم يطرح أحد هذا السؤال من قبل قط !

ابتسم (صفوت) ، قائلاً :

ـ ربما لأن أحدًا لم يحاول الغوص فيها أبدًا .

تبادل (مجدى) نظرة صامتة ، مع صاحب الزورق (حمَّادى) ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أن الغوص هنا هو إجراء غير قانونى ، ولن يسمح به الأمن أبد ، فهم يقولون إن مياه البحيرة لم تعد نقية بشكل صحى ، وأن الرؤية فى القاع عسيرة نوعًا ما ، وهذا ما دفعنا إلى

المخاطرة بالقدوم فى وضح النهار ، إذ إن الرؤية منعدمة تحت السطح ليلاً .

قال (صفوت) فى شىء من العصبية :

ـ أهذه هى الأسباب الوحيدة ؟!

بدت الدهشة والحيرة على وجهيهما ، وغمغم (حمادى) :

ـ ولماذا تكون هناك أسباب أخرى ؟!

التقط (صفوت) زعنفتى الغوص ، وارتداهما فى عصبية ، وهو يقول :

ـ عندما يتعلَّق الأمر بالحكومة ، لا يمكنك أن تتنبأ أبدًا .

راقبه الاثنان ، وهو يضع منظار الغوص على عينيه ، ثم قال (مجدى) محذِّرًا :

ـ لا تستخدم زى الغوص الأسود ؛ فهو يلفت الانتباه من عشرة كيلومترات ، فى مثل هذا الوقت .

غمغم (صفوت) فى حدة ، وهو يرتدى أسطوانة الأكسجين الأولى :

ـ لا تقلق .. أنا أعلم هذا .

ثم التقط كشافًا مائيًا ضخمًا ، ولوَّح بيده ، قائلاً :

ـ لا تتحركا من هنا حتى أعود .

قالها ، ومال بظهره إلى الخلف ، وترك جسده يهوى فى مياه البحيرة ..

كانت المياه باردة ، على الرغم من دفء الشمس ، ولكن جسده استوعب هذا ، وتكيَّف عليه فى سرعة ، وهو يغوص ..

ويغوص ..

ويغوص ..

لم يكن القاع ممتعًا ، كمثيله فى مياه البحر الأحمر الصافية ، ولا يحوى تلك الأسماك الجميلة الملوَّنة المتنوِّعة ، أو الأعشاب المرجانية العديدة المبهرة ..

كان قاعًا مزدوجًا ، من الصخور والطحالب والطين ، تعكَّرت مياهه ، وباتت الرؤية فيه صعبة مرهقة ..

ولكنه واصل الغوص ، بالقرب من القاع ، فى محاولة لاستعادة هدوء أعصابه ..

فالغوص ، والغوص وحده ، كان يمنحه الهدوء ، ويبث فى عروقه حالة فريدة من الاسترخاء وراحة النفس ..

ربما لأنه يشعر أنه فى عالم خاص للغاية ..

عالم يحيا بتلقائية وهدوء ، واستقرار ، و ...

وفجأة ، سرت فى جسده رجفة عجيبة ..

رجفة لم يكن لها أبدًا ما يبرِّرها ..

وفى اللحظة ذاتها ، بدا وكأن القاع كله يرتجف وينتفض ، وتضاعفت عكارة المياه إلى حد مخيف ، حتى انعدمت الرؤية تمامًا ..

وبكل ذعره وتوتره ، أشعل (صفوت) مصباحه الضخم ، فى محاولة لاختراق المياه المظلمة ، ورؤية ما يحدث ..

ولكن عكارة المياه تضاعفت أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وتضاعف ذعر (صفوت) ألف ألف مرة ، وراح يضرب الماء بكفيه وذراعيه وقدميه ، بمنتهى العنف ، فى محاولة للفرار من خطر مبهم عجيب ..

ثم صك ذلك الصوت المكتوم مسامعه ..

صوت أشبه بانهيار ضخم ، أو بانكسار جدار هائل ..

وبعدها توقَّف كل شىء ..

وراحت المياه تهدأ ..

وتهدأ ..

ومعها أعصاب (صفوت) ..

لقد زال الخطر ، أيًّا كان ، وهدأت الأمور ..

ولكن ماذا حدث ؟!

ماذا ؟!

استعاد رباطة جأشه ، وتصاعد فضوله فى أعماقه ، وتملكته روح المغامرة ، فعاد يشعل مصباحه ، ويجوب القاع ، الذى عادت مياهه إلى هدوئها ، وزالت عكارتها بالتدريج ..

كان كل شىء يبدو عاديًّا ، مستقرًّا ، و ...

وفجأة ، لمح ذلك الشق ..

شق ضخم فى القاع ، لم يكن موجودًا من قبل ..

إنه واثق من أنه لم يكن هناك ..

شق يبلغ اتساعه مترين على الأقل ، يغوص فيه ضوء مصباحه ، حتى يبلغ قاعدة صخرية فى نهايته ، مع ظلّ يوحى بوجود امتداد أفقى ، على مسافة أربعة أو خمسة أمتار تحت القاع ..

وعلى الرغم من خوفه ، لم يستطع (صفوت) المقاومة ..

وبدافع من فضوله ولهفته ، انطلق نحو الشق ، وغاص عبره فى حذر ، حتى بلغ قاعدته الصخرية ..

كان هناك بالفعل امتداد أفقى ..

أو شبه أفقى ..

فلقد بدا ، من تلك الزاوية ، مائلاً إلى أسفل على نحو ما ..

وكان متسعًا ، يكفى لعبور رجلين على الأقل ..

وضوء المصباح لا يبلغ نهايته ..

وفى جرأة يُحسد عليها ، انطلق (صفوت) يعبر ذلك الشق الأفقى ، ويتوغّل فيه أكثر ، وأكثر ..

وأكثر ..

كان يمتدّ لعشرين مترًا على الأقل ، ثم ينتهى فى فجوة ضخمة مغلقة ..

فجوة تنتهى بجدار صخرى هائل ..

ولكن هناك امتداد آخر إلى أعلى ..

امتداد ضخم ، بحجم الفجوة كلها ..

ولأنه قد بلغ هذا الموضع بالفعل ، فلم يكن هناك مبرّر للتراجع..

لذا فقد ارتفع إلى أعلى ..

وقبل أن يقطع مترين بارتفاعه ، وجد نفسه فجأة ، فوق سطح الماء ..

وكانت مفاجأة مدهشة بالفعل ..

فكيف يصل إلى سطح الماء بهذه السرعة ، مع أنه من المفترض أنه تحت السطح فعليًا بعشرة أمتار على الأقل ؟!

بل بخمسة عشر مترًا ، لو أُضاف عمق الشق ..

وبكل دهشته وحيرته ، أدار مصباحه الضخم فى الفجوة الهائلة التى بلغها ..

كان داخل تجويف كبير ، يرتفع سقفه لثلاثة أمتار ونصف المتر تقريبًا ، له جدران صخرية ، تحوى نقوشًا هيروغليفية على الأرجح ..

ثم انخفض بضوء مصباحه ، وهو يهتف مبهورًا :

ـ ربّاه ! إنه معبد أثرى مجهول ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، وقع ضوء مصباحه على أرضية التجويف ..

وانعكست مئات الأضواء على وجهه ..

بل على المكان كله ..

وفى لحظة واحدة ، بدا وكأن الشمس قد أشرقت فى المكان كله ، وألقت ضوءها الذهبى على جدرانه ونقوشه وسقفه ..

واتسعت عينا (صفوت) عن آخرهما ..

وخفق قلبه كما لم يخفق أبدًا من قبل ..

والتمعت عيناه على نحو عجيب ..

والتمع وجهه كله بالأضواء الذهبية المنعكسة ..

بل ، والتمع كيانه كله بانبهار ، ولهفة ، وجشع الدنيا كلها ..

فما يراه أمامه ، لم يكن شيئًا عاديًا أبدًا ..

بل كان شيئًا مذهلاً ..

بكل المقاييس ..

وفى كل الظروف ..

بلا استثناء ..

★ ★ ★

٢ ـ زلزال ..

لوّحت زوجة (عاصم) بذراعها ، فى توتر بالغ ، وهى تهتف بانزعاج شديد :

ـ إنه أعنف زلزال عرفته (مصر) .. لقد أصاب البلاد كلها بالرعب .. هل تصدّق أن كل من أعرفهم غادروا منازلهم مذعورين ، بأقل قدر من الثياب ، وكلهم بلا استثناء تصوّروا أن بيوتهم تنهار .. ألهذا الحد فقد الناس ثقتهم فى البيوت والمبانى .. وهناك عمارة انهارت فى (هليوبوليس) ، وأخرى فى مكان ما ، لست أذكره بالضبط ، والتليفزيون يقول : إن عشرات الآثار القديمة قد تصدّعت ، و ...

أمسك كتفيها ، قائلاً :

ـ لقد انتهى كل شىء يا حبيبتى .. أهدئى .

هزّت رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ كلاّ .. لم ينته بعد .. يقولون : إنه هناك توابع للزلزال ، ربما تأتى مدمرة ، مثله تمامًا ..

التقط نفسًا عميقًا ، وهو يقول فى توتر :

ـ إنها ظاهرة طبيعية ، ولا داعى لكل هذا الانزعاج .

ألقت رأسها على صدره ، وتركت لدموعها العنان ، وهى تقول :

ـ لابد أن نبتعد يا (عاصم) .. لابد أن نترك (القاهرة) هذه الأيام ، لا يمكننى أن أغمض عينىَّ ، وأنا أتوقَّع أن ينهار المنزل فوق رءوسنا فى أية لحظة .. الموت تحت الأنقاض أمر بشع .. بشع .. إننى أختنق ، كلما تصوَّرت نفسى أدفن حية حتى الموت ..

بكت فى غزارة ، وجسدها يرتجف بين ذراعيه كعصفور مبتل ، فربَّت عليها فى حنان ، قائلاً :

ـ لن يحدث هذا بإذن الله يا حبيبتى .. (القاهرة) تحوى آلاف المنازل ، وواحد أو اثنين فقط انهارا ، وستثبت التحقيقات أن هذا قد حدث بسبب ضعف الخامات ، أو عدم مراعاة الضمير والقواعد فى عملية البناء ، أو لأنها منازل قديمة للغاية ، كانت بالفعل آيلة للسقوط ، سواء أجاء الزلزال أم لا .. وما تعانين منه أمر طبيعى للغاية ، يطلقون عليه اسم (هلع ما بعد الكوارث) ، وسيزول مع الوقت بإذن الله .

بكت أكثر ، وهى تهتف :

ـ أنا خائفة مذعورة ، والمشهد لا يفارق ذهنى أبدًا .

أراد أن يطمئنها بعبارة ما ، لولا أن ارتفع رنين جرس الباب ، على نحو عصبى متصل ، فانتفضت بين ذراعيه ، صارخة :

ـ ماذا حدث ؟! ماذا هناك ؟!

انعقد حاجبا (عاصم) ، وهو يربِّت عليها ، قائلاً :

ـ اطمئنى .. اطمئنى .

أبعدها عنه فى صعوبة ، وهو يسرع إلى الباب ، قائلاً فى عصبية :

ـ حسنًا .. حسنًا .. انتظر قليلاً ، الدنيا لن تنتهى .

فتح الباب فى حدة ، وكل ذرة فى كيانه ترغب فى الانفجار ، فى وجه ذلك السخيف ، الذى يدق الجرس بلا انقطاع ، إلا أنه لم يكد ينظر إلى وجه القادم ، حتى وجد نفسه يهتف ، بكل دهشة الدنيا :

ـ (صفوت) ؟! متى عدت من (الفيوم) ؟!

اندفع (صفوت) يتشبث به ، وهو يقول فى انفعال عجيب :

ـ لن تصدِّق يا (عاصم) .. لن تصدِّق ما عثرت عليه .

حدَّق (عاصم) فى وجهه بدهشة ، وحاول أن يجذبه إلى الداخل فى رفق ، قائلاً :

ـ (صفوت) .. هل شعرت بالزلزال فى (الفيوم) أيضًا ؟!

لوَّح (صفوت) بذراعه ، هاتفًا بنفس الانفعال :

ـ هذا الزلزال رائع .. إنه سبب خلاصنا ، وطريق القضاء على كل مشكلاتنا ومتاعبنا المالية إلى الأبد .

اتسعت عينا الزوجة فى دهشة مستنكرة ، وهى تهتف :

ـ (صفوت) ؟! هل جننت ؟! هذا الزلزال رهيب .. إنه يهدِّد بدفننا أحياء .. هل يمكنك أن تتصوَّر هذه البشاعة .. الدفن حيًّا حتى الموت .. إنها أبشع ميتة فى الوجود ، وأسوأ ..

قاطعتها ضحكة عصبية عالية ، انطلقت بغتة من بين شفتيه ، وهو يهتف :

ـ الزلزال لا يحمل الموت وحده ..

ثم برقت عيناه على نحو عجيب مخيف ، وهو يضيف :

ـ قد يحمل معه الثراء أيضًا .

حدَّق (عاصم) وزوجته فى وجهه بدهشة بالغة ، وخُيِّل إليهم أنه قد أصيب بجنون غير طبيعى ، فأمسك الأوَّل يده ، وقاده إلى حجرة الصالون ، وهو يقول فى رفق مشفق :

ـ (صفوت) .. تعال يا صديقى .. سنعد لك كوبًا من النعناع ، و ...

جذب (صفوت) يده فى حدة ، وهو يهتف :

ـ هل تظننى مجنونًا ؟! لك كل الحق فى هذا ، فما رأيته كان يكفى لإصابة عبقرى العباقرة بجنون مطبق ؟!

سأله (عاصم) فى حذر :

ـ ما الذى رأيته يا (صفوت) ؟!

أجابه (صفوت) فى انفعال ، وعيناه تبرقان بشدَّة :

ـ إنه هناك يا (عاصم) .. فى أعماق البحيرة فى (الفيوم) .. لقد رأيته بنفسى .. إنه شىء رائع ومبهر يا (عاصم) .. رائع ومبهر إلى أقصى حد .

كرَّر (عاصم) سؤاله ، فى شىء من العصبية :

ـ ما الذى رأيته يا (صفوت) ؟!

برقت عينا (صفوت) أكثر وأكثر ، وأطلَّ منهما جشع الدنيا كله ، وهو يجيب :

ـ الكنز .. الكنز يا (صفوت) .

قالت الزوجة فى حيرة مبهورة :

ـ أى كنز ؟!

تراجع (صفوت) ، وهو يهتف :

ـ كنز (قارون) .

اتسعت عينا (عاصم) وزوجته عن آخرهما ، وهما يحدقان فيه ، قبل أن يقول (عاصم) فى عصبية :

ـ قل لى يا (صفوت) .. هل يبدو لك الموقف مناسبًا لهذا العبث السخيف .

أجابه (صفوت) فى انفعال :

ـ لا يوجد أى عبث يا رجل .. الكنز هناك .. بل الكنوز .. لقد رأيت ما يحتاج إلى قافلة من سيارات النقل ، لحمله إلى مكان آخر .

سألته زوجة (عاصم) فى انبهار :

ـ رأيت ماذا ؟!

التمعت عينا (صفوت) عن آخرهما ، وهو يهتف :

ـ ذهب .. رأيت أطنانًا من الذهب ، والحلى ، والمجوهرات .. رأيت ذهبًا يتجاوز ثمنه آلاف المليارات .. ذهبًا يكفى لتحويلنا إلى أغنى أغنياء العالم ، فى غمضة عين .

برقت عينا الزوجة فى لهفة ، فى حين انعقد حاجبا (عاصم) ، وهو يقول :

ـ (صفوت) .. هل تدرك ما تقوله ؟!

هتف (صفوت) بفرح جنونى :

ـ بالتأكيد يا رجل .. بالتأكيد .. لقد رأيت كل هذا بعينى .

اندفعت زوجة (عاصم) فجأة ، وأمسكت ذراع (صفوت) فى قوة ، وهى تقول بكل لهفة الدنيا :

ـ أريد أن أراه .. أريد أن أرى كل هذا الذهب بنفسى .

قهقه ضاحكًا ، وهو يهتف :

ـ بالتأكيد .. لماذا أنا هنا إذن ؟!

قال (عاصم) فى صرامة :

ـ هل صدقت ما قاله ؟!

هتفت ، قبل حتى أن يكمل سؤاله :

ـ نعم .. أصدقه .

عاد حاجباه ينعقدان فى شدة ، وهو يقول :

ـ لماذا ؟! ألأنك ترغبين فى تصديقه ؟! هل تصورت أنه من السهل أن يغوص شخص ما فى قاع بحيرة (قارون) ، ليجد كنزه تحتها بهذه البساطة ؟!

قال (صفوت) فى سرعة :

ـ هذا ما حدث بالضبط .

اندفعت زوجة (عاصم) فجأة ، وأمسكت ذراع (صفوت) فى قوة ..

لوَّح (عاصم) بيده ، هاتفًا :

ـ لم نسمع أبدًا عن ممارسة رياضة الغوص ، فى بحيرة (قارون) .

تألَّقت عينا (صفوت) ، وهو يشير بسبَّابته ، قائلاً :

ـ ولكنك تعرفنى جيِّدًا ، هوايتى الأولى هى كسر القواعد .. كل القواعد .

.وبكل حماس الدنيا ، راح يروى لهم كل ما حدث ..

كله ..

وبكل التفاصيل ..

ولقد زلزلت الرواية كيانهم بحق ..

كل منهما فى اتجاه ..

الزوجة سقطت على أقرب مقعد إليها ، وهى تلهث مبهورة ، وعقلها يرسم صورة رائعة لأطنان الذهب والمجوهرات ، فى حين اتسعت عينا (عاصم) عن آخرهما ، وهو يغمغم :

ـ يا إلهى ! مستحيل ! مستحيل !

هزَّ (صفوت) رأسه فى قوة ، هاتفًا :

ـ ليس مستحيلاً .. قلت لك : إننى قد رأيت كل شىء بنفسى .

جلس (عاصم) بدوره على مقعد قريب ، وهو يقول :

ـ والآن ماذا نفعل ؟!

هتف به (صفوت) فى حماس :

ـ أهذا سؤال يا رجل .. سنستولى على الكنز كله بالطبع .

رفع (عاصم) عينيه إليه فى ذعر ، هاتفًا :

ـ نستولى عليه ؟!

قال (صفوت) فى سخرية :

ـ بالطبع .. هل تصوَّرت أننا سنبلغ الصحافة ، ونكتفى بالشهرة والأضواء ، ونترك كل هذه المليارات للدولة .

قلب (عاصم) كفه ، قائلاً :

ـ أليس من المفترض أنها صاحبة الحق ، فى أى كنز أثرى ، يُكشف على أرض (مصر) ؟!

هتف (صفوت) مستنكرًا :

ـ صاحبة الحق ؟! أى حق ؟! الحكومة أيضًا تسعى للاستيلاء على كل ما يعثر عليه أى مخلوق ، ولكن بقانون .. نوع من السرقة المغلّفة بشرعية زائفة .. هل تعلم : لقد أخبرنى والدى أن هذا القانون السخيف لم يكن له وجود ، حتى تم كشف

مقبرة (توت ـ عنخ ـ أمون)(*)، وعثر فيها (هوارد كارتر) على كنوز رهيبة .. ففى ذلك الحين كان القانون يمنح المكتشف نصف ما يعثر عليه ، ولكن الحكومة أرادت الاستئثار بالكنوز كلها ، فألغت القانون ، ووضعت القانون الجديد ، الذى يمنحها كل الحق ، فى كل ما يكشف على أرضها(**).

قال (عاصم) فى عصبية :

ـ إنها ليست مجرَّد كنوز يا (صفوت) .. إنها آثار .. تاريخ لا يمكن للوطن أن يتنازل عن نصفه ، أو حتى عن قطعة واحدة منه للآخرين .

حدَّق (صفوت) فيه ، مغمغمًا :

ـ تاريخ ؟!

ثم انطلقت من حلقه مرة أخرى قهقهة عالية مدوية ، والتفت إلى زوجة (عاصم) ، هاتفًا فى سخرية عصبية :

(*) (توت ـ عنخ ـ آمون) : ملك مصرى فرعونى قديم (١٣٤٧ ـ ١٣٣٩ ق . م) ، من الأسرة الثامنة عشرة ، زوج ابنة (اخناتون) ، تم تتويجه فى العقد الثانى من عمره ، ومات دون العشرين ، تنصّل من ديانة (آتون) ، وعاد إلى (طيبة) والإله (آمون) ، ولقد موّل اللورد (كارنرفون) حملة البحث عن مقبرته ، التى عثر عليها (هوارد كارتر) سليمة ، بكل تحفها وكنوزها ، (المعروضة حاليًا فى المتحف المصرى) ، عام ١٩٢٢م .

(**) حقيقة .

ـ هل رأيت ما يفعله زوجك ، وسمعت ما يقوله يا (دينـا) .. أخبـره عن كنز أغنى رجل عرفه التاريخ ، فيحدثنى عن الدولة والتاريخ ، وحقوق الوطن .

غمغمت فى حنق :

ـ أحمق !

التفت إليها (عاصم) بغضب شديد ، فاستدركت فى سرعة ، وهى تتكمش فى مقعدها :

ـ من لا يظفر بفرصة كهذه .

انعقد حاجبا (عاصم) بشدة ، وبدا لحظة وكأنه منهمـك فى تفكير عميق ، قبل أن يغمغم فى عصبية :

ـ إنكم تعرضون علىَّ مخالفة القانون .

مال (صفوت) نحوه ، قائلاً بصوت أشبه بالفحيح :

ـ بل نعرض عليك فرصة لا تتكرَّر ، لتصبح بضربـة واحدة أغنى رجل فى العالم .

وبعينين برقتا كاللهب ، مالت نحوه زوجته ، مضيفة :

ـ ذهب ومجوهرات بمليارات يا (عاصم) .. أمر لم يحلم به حتى أكثر المتفائلين فى الكون .

ازداد انعقاد حـاجبى (عـاصم) طويـلاً ، وبدا على ملامحـه قلق بالغ ، فربَّتت زوجته على كتفه ، هامسة فى ضراعة :

ـ أرجوك يا (عاصم) .. أرجـوك .. لا تضيـع فرصـة كهـذه أبدًا .

ثم ألقت رأسـها علـى كتفـه ، وتفجَّرت الدمـوع مـن عينيهـا أنهارًا ، وهى تقول :

ـ أرجوك .

انفطر قلبه لحزنها ودموعها ، ورفـع يدهـا يتحسَّس شعرها وخدها فى حنان ، وبدا من ملامحه أن يلين للفكرة ، ويلين ، و ....

« ولكن لماذا ؟! » ..

نطق (عاصم) السؤال فجـأة ، وهـو ينتفـض فـى مجلسـه ، ويحدِّق فى وجه (صفوت) ، فتراجعت زوجته (دينا) ، قائلـة فى قلق :

ـ لماذا ماذا ؟!

هبَّ (عاصم) من مقعده بحركة حادة ، وهو يلـوِّح بسبَّابته فى وجه (صفوت) ، قائلاً :

ـ لماذا أخبرتنا بهذا ؟! لماذا لم تحتفظ بالكنز والسر لنفسك ؟!

بُهِتَ (صفوت) للسؤال ، وهتف :

ـ ماذا تقول يا (عاصم) ؟! إنك شريكى ، وصديق عمرى ، و ...

قاطعه (عاصم) فى صرامة :

ـ لماذا يا (صفوت) ؟!

تنهَّد (صفوت) ، وهو يحاول السيطرة على أعصابه ، وهزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ هناك ذهب كثير .. كثير جدًّا .. أطنان من الذهب ، تكفى الكل ، و ...

قاطعه (عاصم) بصرامة أكثر :

ـ لماذا يا (صفوت) ؟!

ازدرد (صفوت) لعابه ، وتردَّد بضع لحظات ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ الواقع أننى أحتاج إلى معاونتك .

انعقد حاجبا (عاصم) بشدَّة ، وهو يقول :

ـ هذا جواب أكثر إقناعًا .

ثم عاد يجلس على مقعده ، متطلِّعًا إلى (صفوت) بنظرة نارية ، جعلت هذا الأخير يهتف ، فى عصبية أكثر :

ـ وماذا فى هذا ؟! إننا شريكان .. أليس كذلك ؟!

مال (عاصم) إلى الأمام ، وسأله بنفس الصرامة :

ـ ما العقبة التى تحول بينك وبين ذلك الكنز المزعوم يا (صفوت) ؟!

أجابه فى توتر :

ـ ليس مزعومًا يا (عاصم) .. إنه كنز حقيقى .. لقد رأيته بنفسى .

هتفت (دينا) فى لهفة جشعة :

ـ هل أحضرت شيئًا منه معك يا (صفوت) ؟! دعنى أر ما أحضرته .. أرجوك .

ابتسم (صفوت) ابتسامة مرتبكة ، وهزَّ كتفيه فى توتر ، فنقل (عاصم) بصره بينه وبين زوجته ، قبل أن يقول :

ـ من الواضح أن لسؤالينا جوابًا واحدًا يا (صفوت) .

زفر (صفوت) ، قائلاً :

ـ هذا صحيح .

سأله (عاصم) مرة أخرى ، ولكن باهتمام فضولى :

ـ ما الذى يحول بينك وبين الكنز ؟!

هزَّ (صفوت) كتفيه مرة أخرى ، وقلب كفيه فى توتر

ملحوظ ، والتردُّد يملأ كل خلجة من خلجاته ، ثم لم يلبث أن حسم أمره فجأة ، وأجاب فى عصبية :

ـ الأفاعى ؟!

تراجعت (دينا) بحركة حادة ، فى حين هتف (عاصم) بدهشة بالغة :

ـ الأفاعى ؟! أية أفاع .. المفترض أن هذا المكان مغلق منذ آلاف السنين ، فكيف بلغته تلك الأفاعى ، وما الذى تحيا عليه ؟!

هزَّ (صفوت) رأسه فى قوة ، وقال :

ـ لا تسألنى عن كل هذا ، فأنت خبير الأفاعى لا أنا .

هتف (عاصم) بدهشة :

ـ أنا ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ بالطبع أنت .. هل نسيت أنك خريج كلية العلوم ، قسم البيولوجيا(*) ؟! المفترض أنك أكثر من يمكنه التعامل مع الأمر .

(*) البيولوجيا : علم الأحياء ، وينقسم إلى علمى النبات والحيوان ، ويتضمّن كل من هذين القسمين علوم الخلية ، والأنسجة ، والتشريح ، والمورفولوجيا ، والفسيولوجيا ، وعلم الأجنة ، وعلم البيئة ، وعلم الوراثة والتطور ، وعلم الحفريات ، وعلم التصنيف ، وأضيف إليها حديثًا علم الميكروبيولوجيا (الكائنات الدقيقة) ، والبيولوجيا الحيوية ، ولقد كان لكشف المجهر فى القرن السادس عشر أكبر الأثر فى تطوّر علم البيولوجيا .

انعقد حاجبا (عاصم) طويلاً ، قبل أن يسأله فى اهتمام :

ـ ماذا وجدت هناك بالضبط يا (صفوت) ؟!

أجابه فى توتر :

ـ فى البداية ، بدا كل شىء عاديًا ، حتى إننى خرجت من تلك الفجوة ، واندفعت نحو الكنز ، وكلى لهفة لالتقاط أى شىء منه .

وصمت لحظة ، ازدرد خلالها لعابه فى صعوبة ، قبل أن يضيف :

ـ ثم فجأة ، ظهرت تلك الأفاعى .. عشرات منها ، برزت من كل صوب ، واتجهت نحوى فى مشهد مخيف ، جعلنى أتراجع مذعورًا ، وأقفز مرة أخرى فى الفجوة الممتلئة بمياه البحيرة ، وما إن فعلت حتى توقّفت كلها ، وعادت بسرعة مدهشة إلى جحورها ، وكأن كل مهمتها هى حماية الكنز فحسب .

اتسعت عينا الزوجة فى ارتياع ، فى حين غمغم (عاصم) مبهورًا :

ـ ربّاه ! أهذا صحيح ؟!

أجابه (صفوت) فى انفعال :

ـ نعم .. صحيح .. هذا ما حدث بالضبط ، ولقد كرَّرت المحاولة ثلاث مرات ، وفى كل مرة يحدث الأمر ذاته .. هجوم عندما أقترب من الكنز ، وتراجع فور ابتعادى عنه .

انعقد حاجبا (عاصم) فى شدَّة ، وبدت عليه علامات التفكير العميق ، وهو يغمغم :

ـ يا للغرابة !

ازدرد (صفوت) لعابه فى صعوبة ، وقال فى توتر :

ـ ولكن هناك حل حتمًا لهذا .. أليس كذلك ؟! أليس كذلك يا (عاصم) ؟!

هتفت (دينا) فى حماس مصطنع :

ـ بالطبع هناك حل .. (عاصم) عبقرى ، فى معالجة هذه الأمور .

أجابها (عاصم) فى صرامة :

ـ لا شأن للعبقرية بالأمر .

ثم نهض ، مستطردًا فى حزم ، وهو يتجه نحو مكتبته ، مضيفًا :

ـ إنه العلم .

والتقط موسوعة كبيرة من المكتبة ، وهو يسأل (صفوت) فى اهتمام :

ـ هل يمكنك معرفة نوع الأفاعى التى رأيتها ؟!

أجابه (صفوت) فى سرعة :

ـ إنها .. إنها ذلك النوع المفلطح الرأس .. هل تعرفه ؟! ذلك الذى نراه فى الأفلام الهندية .. النوع الذى يخرج راقصًا من السلة ، عندما يقوم الفقير الهندى بالنفخ فى مزماره .. هل تعرف ذلك النوع من الأفاعى ؟!

قلَّب (عاصم) صفحات الموسوعة بضع لحظات ، ثم وضع صورة كبيرة أمام (صفوت) ، قائلاً :

ـ أتشبه هذه ؟!

حدّق (صفوت) فى صورة الأفعى أمامه ، قبل أن يهتف :

ـ بالضبط .. إنها هى .

أومأ (عاصم) برأسه وزفر قائلاً ، وهو يقرأ ما كتبته الموسوعة :

ـ آه .. (الكوبرا) .. هذا ما توقّعته .. إنها واحدة من أشرس وأخطر أنواع الأفاعى السامة ، وهى تشتهر بعادة رفع الجزء الأمامى من الجسم ، ونفخ غطاء الرأس ، ويُطلق على ذلك النوع من الأفاعى اسم (ناجا) (Naja) ، والنوع الموجود منها فى (الهند) يُعرف باسم (كوبرا المنظار) ؛ لوجود علامة على ظهرها تشبه المنظار ، و (الكوبرا) فى الشرق الأقصى و (أندونيسيا) سوداء اللون ، بلا أية علامات ، أما فى الجزء الاستوائى من (آسيا) فيوجد نوع يعرف باسم الكوبرا الملك ، وهى من أخطر وأكبر الثعابين السامة فى العالم ، وطولها يزيد فى بعض الأحيان على ستة أمتار ، أما ثعابين الكوبرا الإفريقية ، فهى تبصق السم فى وجه أى إنسان أو حيوان يزعجها ، ولو لم يتم تنظيف هذا السم بماء نظيف بأسرع وقت ، فهو يؤدى إلى إصابة دائمة ، قد تصل إلى العمى الكامل .. أما النوع الصغير منها ، والذى يعرف باسم (ناجا هاجى) ، فهو النوع نفسه ، الذى انتحرت به الملكة (كليوباترا) ، عام ثلاثين قبل الميلاد .

انعقد حاجبا (صفوت) ، وهو يهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ النوع الذى رأيته لم يكن صغيرًا ، ولم يبلغ الأمتار الستة بالتأكيد .. ثم إنه ليس أسود اللون ، وليست به علامات المنظار على رأسه .

وافقه (عاصم) بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ بالطبع ، فالنوع الذى ستجده هنا هو النوع المصرى (ناجا هاجى) (Naja Haje) ، فى الطور الناضج منه ، وهو يبلغ ما بين المتر والمتر ونصف المتر طولاً .

هتف (صفوت) :

ـ بالضبط .

ثم تساءل فى لهفة ضارعة :

ـ هل توجد وسيلة للخلاص منه ؟!

صمت (عاصم) بضع لحظات ، وهو يعيد الموسوعة إلى المكتبة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ هذا يحتاج إلى استشارة أحد أساتذتى القدامى .

هتفت زوجته :

ـ أيعنى هذا أنك ستشترك معنا ، فى عملية انتشال كنوز (قارون) ، من قاع البحيرة ؟!

التفت إليها ، قائلاً فى دهشة :

ـ معكما ؟!

ارتبكت ، قائلة :

ـ نعم .. أقصد مع (صفوت) .

التقط نفسًا طويلاً عميقًا ، وأدار الأمر فى رأسه على كل الوجوه ، قبل أن يقول فى حسم :

ـ بالطبع .

زفر (صفوت) فى ارتياح ، وأغلق عينيه فى قوة ، فى حين أطلقت (دينا) ضحكة عالية ، تموج بالفرحة والسعادة ، وقفزت تتعلّق بعنقه ، وتغمر وجهه بالقبلات ، وقد نسيت كل شىء عن الزلزال ..

كل شىء .

* * *

٢ ـ البحث ..

ارتسمت ابتسامة كبيرة ، على وجه الدكتور (محسن الغندور) ، أستاذ ورئيس قسم البيولوجيا فى الجامعة ، وهو ينهض لمصافحة تلميذه القديم (عاصم) ، قائلاً فى سعادة :

ـ صباح الخير يا (عاصم) .. كيف حالك يا ولدى ، وكيف حال شركتك ؟! لماذا لم نرك منذ فترة طويلة ؟!

غمغم (عاصم) فى خجل :

ـ مشاكل الدنيا فحسب .

ابتسم الدكتور (محسن) ، وأشار إليه بالجلوس ، وهو يقول :

ـ لا يمكنك أن تتصوَّر مدى سعادتى برؤيتك .. لقد كنت طالبًا نجيبًا متفوِّقًا ، وكلنا كنا نتوقَّع لك مستقبلاً باهرًا ، لولا ...

بتر عبارته فى شىء من الخجل ، فتابع (عاصم) فى مرارة :

ـ لولا إصرار العميد على تعيين ابن شقيقته كمعيد بالقسم ، وهو المنصب الذى كان ينبغى أن أحصل عليه أنا ، بحكم كونى الأوَّل على الدفعة .

تنهَّد الدكتور (محسن) ، مغمغمًا :

ـ لعلك تذكر أننا قد وقفنا جميعًا إلى جوارك حينذاك .

قلب يده ، قائلاً :

ـ وماذا كـانت النتيجـة ؟! ها هو ذا يحتلّ المنصب ، الذى كنت أستحقه أنا .

ثم هزّ كتفيه ، وابتسم ، مستطردًا :

ـ وربمـا كان هـذا مـن حسـن الحظ ، فلـولاه لمـا أصبحت صاحب شركة استيراد وتصدير .

ضحك الدكتور (محسن) ، وكأنمـا انـزاح عن كاهلـه حمـل ثقيل ، وهتف :

ـ بالضبط ..

ثم مال نحوه ، متابعًا :

ـ ولكن الواقع أننى أشعر بـالقلق عليـك ، لأنـك شريك لذلـك الثعبان (صفوت) .. لقد التقيت به مرتين فحسب ، ولكننى لـم أشعر بالارتياح تجاهه أبدًا .

غمغم (عاصم) بكلمات غير مفهومة ، ثم سأله مباشرة :

ـ قل لى يا دكتور (محسن) ، لقد كـانت رسـالة الدكتـوراه التى أعددتها حول أفعى (الكوبرا) .. أليس كذلك ؟!

أومأ الرجل برأسه ، قائلاً :

ـ بلى .. هل تثير اهتمامك فى هذه الأيام ؟!

أجابه (عاصم) فى حذر :

ـ هـذا صحيح .. لقد واجهتنى مشكلة ما ، وأردت أن أقرأ بعض المعلومات عن أفعى (الكوبرا) .

رمقه الدكتور (محسن) بنظرة عتاب ، قائلاً :

ـ من الواضح إذن أنك قد نسيت .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ هل نسيت أننى قد أهديتك نسخة من رسالة الدكتوراه ، عندما كنت طالبًا نابهًا ، فى عامك الأوّل بالقسم ؟!

شعر (عاصم) بالخجل ، وهو يغمغم :

ـ آه .. هذا صحيح .

تذكّر ، فى هذه اللحظة فقط ، أنـه يضـع رسـالة الدكتـوراه ، الخاصـة بـالدكتور (محسن) ، والتـى تحـوى كـل المعلومـات الممكنـة عن أفعى (الكوبـرا) ، فـى ركـن مهمـل بمكتبتـه ، وتصاعد الخجل فى أعماقـه ، وهـو يشـعر بارتبـاك شـديد ، ولسانه عاجز عن قول أى شىء ، حتى إنـه همّ بـالاعتذار والنهوض ، لولا أن دلف رجل وقور إلى الحجرة ، وهو يقول :

ـ دكتور (محسن) .. هل تذكَّرت أن ...

بتر عبـارته فجأة ، عندما وقع بصره على (عاصـم) ، فابتسم الدكتور (محسن) ، وهو ينهض لاستقباله ، قائلاً :

ـ (عاصم) .. تلميذ سابق ، وصـاحب شركـة للاسـتيراد والتصدير حاليًا .

ثم أشار إلى الوقور ، متابعًا :

ـ الدكتور (رفعت إلهامى) .. أستاذ التاريخ القديم .. إننا نتعاون فى رسالة حول أحد المعابد القديمة بالفيوم .

لم يكد يأتى على ذكر (الفيوم) ، حتى سرت فى جسد (عاصم) ارتجافة خفية ، جعلته ينهض بحركة مبالغة ، ليصافح الرجل فى حرارة زائدة ، قائلاً :

ـ فرصة سعيدة يا دكتور (رفعت) .. سعيدة للغاية !

بدت الدهشة على وجهى الرجلين ، وتبادلا نظرة حائرة ، قبل أن يجلس الدكتور (رفعت) ، قائلاً :

ـ الأستاذ (عاصم) خريج قسم البيولوجيا أيضًا .. أليس كذلك ؟!

لم يبد على (عاصم) أنه قد سمع السؤال ، وهو يسأل فى لهفة :

ـ هل تجرى الكثير من الأبحاث فى (الفيوم) يا دكتور (رفعت) ؟!

مرة أخرى بدا مزيج من الدهشة والحيرة على وجهى الرجلين ، ثم لم يلبث الدكتور (رفعت) أن تنحنح ، قائلاً :

ـ إلى حد ما .

سأله (عاصم) فى لهفة :

ـ وهل امتدَّت أبحاثك هذه إلى البحيرة ؟!

سأله فى دهشة :

ـ أية بحيرة ؟!

أجابه بلهفة أكبر :

ـ بحيرة (قارون) .

عاد الرجلان يتبادلان نظرة أكثر دهشة وحيرة ، قبل أن يتساءل الدكتور (محسن) فى حذر :

ـ وما الذى يثير اهتمامك إلى هذا الحد ببحيرة (قارون) يا (عاصم) ؟!

انتبه (عاصم) ، فى هذه اللحظة فقط ، إلى لهفته الزائدة ، فتراجع فى مقعده ، وبذل جهدًا جهيدًا للسيطرة على أعصابه ، وهو يجيب :

ـ لا شىء .. لقد قضيت إجازة قصيرة فى (الفيوم) ، وسمعت هناك من يشير إلى أن كنز (قارون) مدفون تحت البحيرة .

حدَّق الدكتور (محسن) فى وجهه لحظة ، ثم لم يلبث أن أطلق ضحكة عالية ، قائلاً :

ـ وهل صدقت هذا ؟!

تنحنح الدكتور (رفعت) ، وقال :

ـ الواقع أن الأمر ليس بهذه البساطة ، يا دكتور (محسن) .

هتف (محسن) و (عاصم) فى آن واحد :

ـ حقًّا ؟!

تنحنح الدكتور (رفعت) ، واعتدل فى مقعده ، وأشعل غليونه ، قائلاً :

ـ الواقع أن الأقاويل ، التى تتردَّد حول وجود كنز (قارون) أسفل البحيرة ، عديدة وقديمة للغاية ، فـ (الفيوم) كانت عاصمة الدولة الوسطى ، وهناك الكثير من الأهرامات والقصور فى المنطقة ، وكانت منطقة تموج بالثراء ، فى تلك الفترة ، ولقد بنى فيها أكبر القصور على الإطلاق ، وهو قصر (اللابرانت) ، أو (التيه) ، وكانت هذه المنطقة هى المخزن الهائل للقمح والغلال ، فى عصر الرومان ، وقديمًا ، فى عصر (أمنمحات

الثالث) ، كانت البحيرة مخزنًا كبيرًا للمياه ، وأقام هو فيها مشروعًا زراعيًّا ضخمًا ، ومع دخول الإسلام ، اختلطت الأفكار الدينية بالأساطير والحكايات الشعبية للمنطقة ، فجاءت قصة (قارون) وكنوزه المدفونة تحت البحيرة ، ولكن التاريخ لا يمكنه حسم ما إذا كان (قارون) قد عاش فى هذه المنطقة أم لا(*) ..

قال (عاصم) فى اهتمام :

ـ ولكن هناك قصر يُطلق عليه اسم (قصر قارون) هناك .

هزَّ الكتور (رفعت) رأسه ، قائلاً :

ـ المؤكَّد تاريخيًّا أن القصر ، الذى يُطلق عليه هذا الاسم ، هو معبد (يونيسياس) ، إله الخمر عند الرومان .

ابتسم الدكتور (محسن) ، وقال :

ـ الأمر كله إذن مجرَّد خرافات .

هزَّ الدكتور (رفعت) كتفيه ، وهو يقول :

ـ لا يمكنك أن تعتبر السير الشعبية خرافات ، فالقاعدة تقول : إنه لا يوجد دخان بدون نار ، وفكرة وجود كنوز (قارون) أسفل البحيرة ليست مرفوضة تمامًا ، بل إنها تستحوذ على

(*) حقيقة .

عقـول وتفكير العديدين ، منذ الفتح الإسلامى لـ (مصر) ، ولقد جرت عدة محاولات للبحث عنها بالفعل ، ولكنها لم تسفر عن شىء ، ولكن هذا لم يمنع السائحين من التساؤل والبحث ، ولم يمنع العشرات من دراسة الفكرة ، وتحليلها ، وإصدار مؤلفات وأبحاث عنها(*).

تراجع (عاصم) فى مقعده بارتياح كبير ، وهو يغمغم :

ـ إذن فهناك ظلّ للحقيقة فى الأمر كله .

أومأ الكتور (رفعت) برأسه ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

وهنا .. هنا فقط شعر (عاصم) ، بارتياح كبير ..

(صفوت) لم يكن واهمًا إذن ..

إنها حقيقة ..

كنوز (قارون) هناك ..

أسفل البحيرة ..

وكلها فى انتظار من ينتشلها ..

ومن يتحوّل بفضلها إلى أغنى رجل فى (مصر) ..

(*) حقائق علمية وتاريخية وواقعية .

بل فى العالم أجمع ..

بلا منازع ..

* * *

رقصت كل ذرة فى كيان (صفوت) طربًا ، وهو يتوقّف بسيارته أمام منزله ، بعد أن قضى نهاره كله فى إعداد كل ما ينبغى ، للفوز بكنوز (قارون) ..

استأجر سيارة نقل كبيرة مغلقة ، ومخزنًا فى أوّل طريق (مصـر ـ الإسكندرية) الصـحراوى ، لينقـل إليـه الذهـب والمجوهرات ، ووضع تفاصيل الخطة بالكامل ..

لقد حدّد الموقع الذى غاص فيه ، ويمكنه أن يبلغه مـع (عاصم) ليلاً ، ومعهما أسطوانات الأكسجين وثياب الغوص ، وبعد أن يجد (عاصم) وسيلة لإبعاد الأفاعى السامة ، سيتعاونان معًا لنقل الكنز إلى سيارة النقل الكبيرة ..

كل ليلة يمكنهما نقل أقصى ما يستطيعان ، إلى ذلك المخزن ، فى أوّل الطريق الصحراوى ..

وبرقت عيناه عن آخرهما ، فى جشع بلا حدود ..

إنهما سيحتاجان إلى شهر على الأقل ، حتى يمكنهما نقل الكمية كلها ..

وبعدها سيصبحان أغنى رجلين فى الدنيا كلها ..

لم يدر لماذا انقبض قلبه ، عندما بلغ هذه النقطة بالتحديد ؟!

لماذا أحنقه أن يشاركه مخلوق آخر هذه الكنوز ؟!

المفترض أنه هناك أطنان من الذهب والمجوهرات ..

أطنان تكفى ألف رجل ، للعيش فى رغد ، لقرن كامل من الزمان ..

فلماذا يغضبه أن يشاركه فيها أحد ؟!

حتى (عاصم) ؟!

لم يعترف فى أعماقه بأن السبب الحقيقى هو جشعه وطمعه ..

وأنانيته ، التى ترفض أن ينعم غيره بما ينعم هو به ..

أنانيته ، التى تتجاوز كل حدود العقل والمنطق ..

حاول أن يقاوم ذلك الشعور السخيف ..

حاول ..

وحاول ..

ولكنه لم يستطع ..

كل ما أقنع به نفسه هو أنه مضطر للاستعانة بـ (عاصم) ، حتى يظفر بكل هذه الكنوز ، ومن حسن حظه أنه لا يوجد ثالث ، أو ...

« أستاذ (صفوت) » ..

قاطعته العبارة فجأة ، فوثب من مكانه ، والتفت إلى صاحبها ، هاتفًا :

ـ ماذا تريد ؟!

فوجئ أمامه بالنادل (مجدى) ، يبتسم فى خبث ، قائلاً :

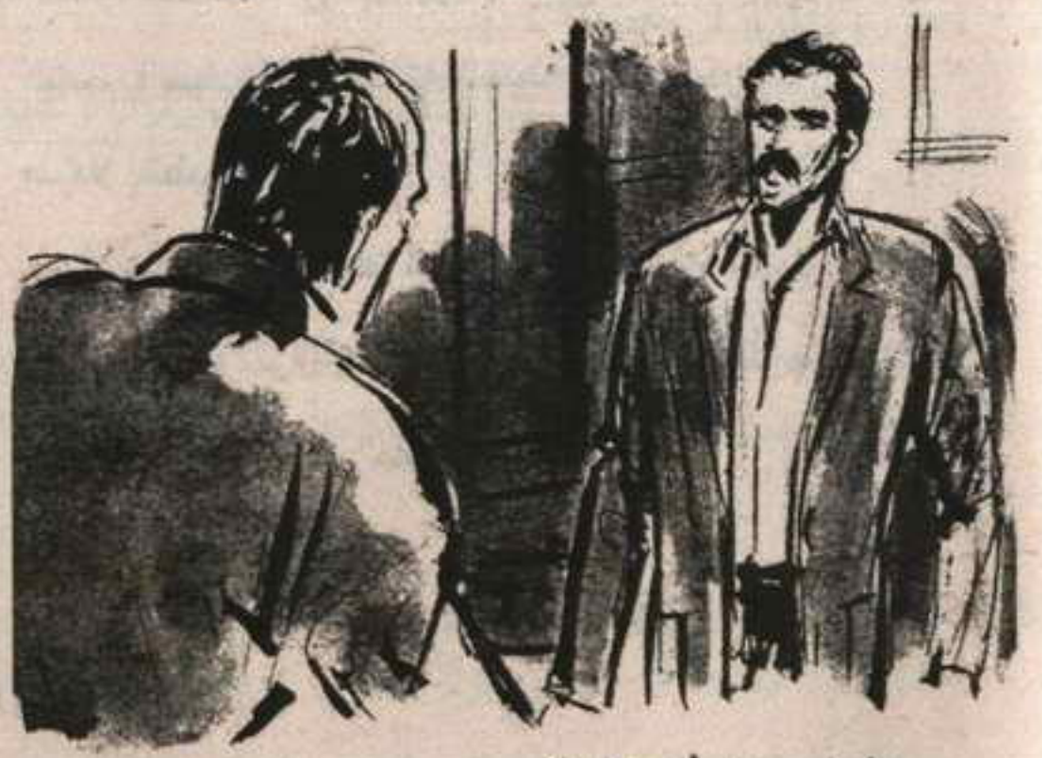

ـ معذرة .. هل أفزعتك ؟!

حدَّق (صفوت) فى وجهه لحظة ، قبل أن يقول فى حدة ودهشة :

ـ ماذا تفعل هنا ؟!

هزَّ (مجدى) كتفيه ، وقال :

ـ لقـد غـادرت (الفيـوم) فجـأة ، وشـعرت بالقـلق ، فأتيت للاطمئنان عليك .

انعقد حاجبا (صفوت) ، وهو يسأله فى صرامة :

ـ أهذا ما تفعله مع كل نزيل بالفندق ؟!

ابتسم (مجدى) ابتسامته الخبيثة ، وهو يقول :

ـ كلاً بالطبع .

ثم أضاف بلهجة ملؤها الدهاء :

ـ ولكن لدى سؤال ، كان من الضرورى أن أطرحه عليك .

سأله (صفوت) فى حذر قلق :

ـ أى سؤال ؟!

مال (مجدى) نحوه ، واكتسب صوته الخبيث لهجة شرسة ، وهو يسأل :

ـ ما الذى عثرت عليه فى البحيرة يا سيِّد (صفوت) ؟!

انتفض جسد (صفوت) فى عنف ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يردِّد مذعورًا :

ـ فى البحيرة ؟!

أجابه (مجدى) ، وقد تحوَّلت لهجته كلها إلى الشراسة :

ـ نعم يا سيِّد (صفوت) .. فى البحيرة .. البحيرة التى خرجت منها حاملاً كل انفعال الدنيا ، وجسدك يرتجف ، ووجهك محتقن ، وكل ذرة فى كيانك متلهِّفة للعودة إلى الشاطئ .

ظلَّ (صفوت) يحدِّق فيه لحظة ، قبل أن ينتزع نفسه من ذعره ، ويقول فى عصبية شديدة :

ـ إنه الزلزال يا رجل .. ألم تشعر به ؟! أعنف زلزال واجهته (مصر) فى الـ ...

قاطعه (مجدى) بضحكة ساخرة عالية ، قبل أن يقول :

ـ زلزال ؟! محاولة لطيفة بحق يا سيِّد (صفوت) .

ثم عاد يميل نحوه بشراسة أكثر ، قائلاً :

ـ ولكنها فاشلة .

قال (صفوت) فى عصبية :

ـ ولماذا يا هذا ؟! ألم يثر الزلزال فزع (مصر) كلها ؟!

أجابه (مجدى) فى حدة :

ـ بالطبع ، ولكن الشخص الذى أثار الزلزال فزعه ، سيصعد إلى السطح مباشرة ، وليس بعد اثنتين وعشرين دقيقة كاملة تحت الماء .

امتقع وجه (صفوت) ، واتسعت عيناه مرة أخرى ، وهو يحدِّق فى (مجدى) ، الذى تراجع ، متابعًا فى عنف :

ـ لقد عثرت على شىء تحت الماء يا سيِّد (صفوت) .. شىء ربما أظهره الزلزال .. شىء جعلك تقضى كل هذا الوقت ، ثم تصعد وكلك انفعال ، ولهفـة على العودة إلى (القاهرة) ، بأسرع وقت ممكن ، فما الذى عثرت عليه بالضبط .

صمت (صفوت) تمامًا ، وهو يحدِّق فى وجهه ، ولا يجد فى نفسه القدرة على الكلام ، فابتسم (مجدى) فى وحشية ، قائلاً :

ـ (حمَّادى) أيضًا شعر بما شعرت أنا به ، ونحن نعيدك إلى شاطئ البحيرة ، وهو يعرف الموقع بالتحديد ، ولن نعدم وسيلة للبحث فى القاع ، حتى ولو استأجرنا بعض الغواصين ، و ...

« لا .. »

قاطعه (صفوت) بصيحة مذعورة ، فابتسم (مجدى) ابتسامة ذئب مفترس ، وهو يقول :

ـ آه .. إذن فأنت تعرف .

حاول (صفوت) أن يتماسك ، وأن يزدرد لعابه ، عبر حلقه الجاف ، وهو يقول فى لهجة أقرب إلى الضراعة :

ـ ما عثرت عليه لا يهم أحدًا يا (مجدى) .. صدقنى .. إنها بعض الآثار القديمة ، وكل ما فكرت فيه هو ...

قاطعه (مجدى) ، مستعيدًا شراسته :

ـ آثار قديمة ؟! هل تسخر منى يا رجل ؟!

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى حدة :

ـ لقد عثرت على كنز .

اتسعت عينا (صفوت) حتى كادتا تلتهمان وجهه كله ، وهو يتراجع كالمصعوق ، فابتسم (مجدى) بظفر أكثر ، وهو يقول :

ـ هذه المنطقة كانت مخزنًا رومانيًا ، ولا ريب فى أن قاعها يخفى مئات العملات الذهبية القديمة .. لقد عثرت عليها .. أليس كذلك ؟!

تنهَّد (صفوت) ، مجيبًا ، وعقله يبحث عن خدعة جديدة :

ـ بلى .. لقد عثرت على صندوق من العملات الذهبية القديمة .

تألَّقت عينا (مجدى) ، وهتف فى لهفة ظافرة :

ـ كنت أعلم هذا .. كنت أعلمه .

أمسكه (صفوت) من ذراعه فى قوة ، وهـو يتلفَّت حوله ، قائلاً فى توتر :

ـ اخفض صوتك يا (مجدى) .. اخفضه باللَّه عليك .

ثم جذبه ، مستطردًا :

ـ تعال .. سنتحدَّث فى منزلى .. هذا أكثر أمنًا .

تبعه (مجدى) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ سنحصل على أنصبة متساوية .. أنت و(حمَّادى) وأنا .. هذا شرطنا .

أجابه (صفوت) ، وهو يسرع إلى شقته :

ـ بالتأكيد .. بالتأكيد .

نطقها ، وعقلـه يراجع الموقف كله ، ويبحث عن وسيلة للخلاص من ذلك المأزق ، وللتخلُّص من تلك المشكلة ..

صحيح أن كنوز (قارون) هائلة ، إلـى حـد لا يمكـن أن يتخيَّله أحد ..

ولكنه لن يسمح بأن يحصل ذلك المأفون على جزء منها بهذه البساطة .

لن يسمح أبدًا ..

مهما كان السبب ..

* * *

سرت موجة عنيفة من التوتر والانفعال ، فى جسد (دينا) ، زوجة (عاصم) ، وهى تصعد فى درجات سلم منزل (صفوت) ..

كان من الواضح ، من شحوب وجهها وزيغ عينيها ، أنها لم تنم لحظة واحدة ، منذ أخبرهما (صفوت) بأمر الكنز ..

كنز (قارون) ..

لم تنعم بلحظة واحدة من النوم ، لتحلم فيها بذلك الكنز الهائل ، الذى يمكنه أن ينقلها ، فى غمضة عين ، من زوجة رجل أعمال عادى ، إلى أغنى امرأة فى العالم أجمع ..

ولكنها باتت ليلتها مستيقظة ، تضع الخطوط العريضة لذلك الثراء ..

فالثراء يلهم المرأة ، بأكثر مما يفعل ألف مرة بالرجل ..

إنه بالنسبة لها أثواب جميلة غالية ، وحلى أصلية ثمينة ، ومعاطف فراء ، وسيارات فارهة ، وحتى عمليات تجميل باهظة ، يمكن أن تمنع عنها شبح الشيخوخة لسنوات وسنوات ..

ولقد حلمت بهذا طويلاً ..

حلمت به عندما تزوَّجت (عاصم) ، بعد عام واحد من عمر شركته مع (صفوت) ..

كان جارًا لها منذ وعت عيناها الدنيا ، ويكبرها بخمسة أعوام ، وترتجف كل ذرة فى كيانه حبًّا ولهفة ، كلما وقع بصره عليها ..

ولكنها لم تبادله الحب أبدًا .

بل وربما لم تعش فى حياتها كلها قصة حب ..

لم يكن لديها الوقت لتفعل ، وهى تخطِّط لمستقبلها ، وترسم أحلام طموحها بلا حدود ..

مشكلتها الوحيدة كانت أن جمالها محدود ..

لم يكن بالجمال الذى يمكن أن توقع به شابًا ثريًا ..

أو حتى شيخًا من شيوخ البترول ..

وكان من المستحيل أن تقبل بالزواج من شاب عادى ، لتكافح وتكافح معه ، حتى يذبل شبابها ويفنى ، قبل أن تتمتع بكل قطرة منه ..

ثم أنشأ (عاصم) تلك الشركة مع (صفوت) ..

وخُيِّل إليها أنه سيصبح ، فى غضون سنوات قلائل ، رجل أعمال كبيرًا ، وثريًا .. شابًا ، تحلم بالزواج منه كل فتاة ..

لذا ، فقد أسرعت تلقى شباكها حوله ..

والواقع أن هذا لم يكن يحتاج إلى الكثير من الجهد ، فقد كان (عاصم) غارقًا فى هواها بالفعل ..

ولهذا لم يستغرق الأمر طويلاً ..

بعد عام واحد من إنشاء الشركة ، وعندما استقرَّت الأمور ، تم زفافها إليه ..

وقبل مرور عام آخر ، كانت قد أدركت أن حلمها لم يكن ناضجًا ..

صحيح أنها لم تعان قط من شظف العيش معه ، إلا أنه لم يكن بالثراء الذى توقَّعته ..

لقد أنفق الكثير والكثير على إنشاء الشركة ، وموعد جنى الأرباح التى تحلم بها ، لم يحن بعد ..

ثم جاءت تلك الأزمة المالية ، التى تسبَّب فيها (صفوت) .. وتحطَّمت معها كل أحلامها ..

وكل طموحاتها ..

ثم جاء (صفوت) بخبر الكنز ..

وعادت الأحلام والطموحات ..

بل لقد قفزت إلى ذروة ، لم تبلغها من قبل قط ..

قفزت من أحلام الثراء ، إلى حلم التفوق والسطوة .. والنفوذ ..

فثراء بهذا المقدار الخيالى ، يجلب معه حتمًا القوة والنفوذ .. وبلا حدود ..

كان قلبها يخفق من فرط الانفعال ، عندما بلغت شقة (صفوت) ، فوقفت تلهث لحظة أمام الباب فى تردُّد ..

إنها أوَّل مرة تزوره فيها فى منزله بمفردها ..

وهذا يجعلها متوترة عصبية ..

ولكن من الضرورى أن تلتقى به ..

وحده ..

لذا ، فقد حسمت أمرها ، وضغطت زر الجرس ، ثم التقطت نفسًا عميقًا ، وكأنما تحاول تهدئة أعصابها الثائرة ..

ولم يستجب أحد لرنين الجرس ..

ولكنها شعرت بحركة فى الداخل ..

حركة واضحة ..

متوترة ..

وفى إصرار ، ضغطت الجرس مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفى عصبية ، هتفت :

ـ (صفوت) .. لماذا لا تفتح الباب ؟!

لم تكد تتمّ عبارتها ، حتى انفتح الباب ، وظهر (صفوت) على عتبته ، ممتقع الوجه ، زائغ العينين ، مرتجف الشفتين ، وهو يهتف بدهشة وانزعاج :

ـ (دينا) ؟!

سألته فى عصبية :

ـ لماذا لم تفتح الباب مباشرة ؟! هل ..

قفزت الفكرة إلى رأسها بغتة ، فأضافت فى خبث ، وهى تختلس النظر إلى الداخل :

ـ هل تستضيف صديقة ما ؟!

هتف فى توتر بالغ :

ـ مطلقًا .. أنا وحدى تمامًا .. من وضع هذه الفكرة العجيبة فى رأسك ؟

أزاحته عن طريقها ، وهى تقول فى حزم :

ـ لن تمانع فى دخولى إذن .

لم تكد تلمس صدره ، حتى شعرت بتلك الارتجافة التى شملت جسده كله ، فسألته فى توتر :

ـ ماذا هناك يا (صفوت) ؟!

أجابها فى عصبية شديدة ، وهو يغلق الباب خلفها فى سرعة :

ـ لا شىء .. لا شىء ..

رمقته بنظرة شك طويلة ، قبل أن تشعل سيجارتها ، قائلة فى توتر :

ـ أراهن على أنك تتساءل عن سر زيـارتى لـك وحـدى ، بدون (عاصم) ، وعلى هذا النحو المباغت .

ازدرد لعابه ، وألقى نظرة قلقة على المطبخ ، قبل أن يجب فى عصبية :

ـ هذا صحيح .

نفثت دخان سيجارتها فى عصبية مماثلة ، قائلة :

ـ كان من الضرورى أن أتحدَّث إليك وحدنا .

اختلس نظرة أخرى إلى المطبخ ، متمتمًا :

ـ وحدنا ؟!

زفرت فى عصبية ، ولوَّحت بيدها الممسكة بالسـيجارة ، وهى تتحرَّك فى المكان ، قائلة :

ـ إننى أشعر بالقلق من (عاصم) .

سألها فى توتر :

ـ لماذا ؟!

قالت فى حدة ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى قوة :

ـ إنه زوجى ، وأنا أعرفه جيِّدًا .. فى أية لحظة يمكن أن يتراجع عن الموقف ، ويتحدَّث عن الحق والعدل والقانون ، وربما اندفع بلا تفكير ، وأفسد العملية كلها .

هزَّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ لا .. من المستحيل أن يفعل (عاصم) هذا .

قالت بسخرية عصبية :

ـ من المستحيل ؟! من الواضح أنك تجهل طبيعته تمامًا ، على الرغم من صداقتكما الطويلة ..

ثم اكتسبت لهجتها بعض الشراسة ، وهى تضيف :

ـ إنه ليس طموحًا مثلنا .. كثيرًا ما يفضِّل الفقر والـ ... والشرف .

نطقت الكلمة الأخيرة بكل العصبية والسخرية ، فتطلَّع إليها بدهشة ، ثم اختلس نظرة أخرى إلـى المطبخ ، قبل أن يسألها بكل التوتر :

ـ ماذا تقترحين ؟!

برقت عيناها فى شدَّة ، وهى تقول :

ـ أن نتم العمليـة ، فى أسرع وقـت ممكن ، قبـل أن أفقد سيطرتى عليه .

تردَّد لحظة ، قبل أن يقول :

ـ يمكننا أن نبدأ الليلة ، ولكن ..

صاحت به فى لهفة :

ـ ولكن ماذا ؟!

اختلس نظرة أخرى إلى المطبخ ، وقال فى عصبية :

ـ هناك أمور ينبغى أن أعتنى بها أولاً .

انعقد حاجباها فى غضب ، وألقت سيجارتها أرضًا فى عنـف ، وهى تهتف :

ـ كنت أعلم أنك تخفيها هنا .. فى المطبخ .

قالتها ، واندفعت نحو المطبخ ، فصاح بها فى ذعر :

ـ لا يا (دينا) .. لا ..

ولكنها بلغت المطبخ ، ودفعت بابه فى قوة ، ثم اندفعت إليه ، و ...

وتسمَّرت فجأة فى موضعها ..

واتسعت عيناها عن آخرهما ، بكل رعب وفزع الدنيا ..

وفى أعماقها ، انكتمت صرخة هائلة ..

فما رأته أمامها كان رهيبًا ..

ومخيفًا ..

للغاية .

★ ★ ★

٤ ـ الدم ..

لم تكن المرة الأولى ، التى يعود فيها (عاصم) إلى منزله ، فلا يجد زوجته (دينا) ..

ولكنه لم يدر لماذا شعر بالتوتر والانقباض ، فى هذه المرة بالذات ؟!

ربما لأن كل ذرة من كيانه تعانى الأمرين ، منذ أقنعته هى وشريكه بالانضمام إليهما ، فى هذه المغامرة ، غير مأمونة العواقب ..

إنه واثق من أن (صفوت) لم يشركه ، إلا لأنه يحتاج إلى معاونته بشدة ..

ولأنه يثق به كثيرًا أيضًا ..

يثق بشرفه ..

وأمانته ..

ونزاهته ..

ومع الخاطر الأخير ، انعقد حاجباه فى عصبية ..

يا لها من مفارقة ساخرة ؟!

(صفوت) يحتاج اليوم إلى شـرفه وأمانتـه ونزاهتـه ، التـى طالما سخر منها ، واعتبرها عائقًا أمام طموحه وتفوّقه ..

يحتاج إلى شرفه وأمانته ونزاهتـه ، للقيام بعمـل يفتقر إلـى أبسط قواعد الشرف والأمانة والنزاهة ..

ولكن المؤسف أنه وافقه ..

واستسلم لتوسلات زوجته ..

ودموعها ..

زفر بكل توتر الدنيا ، وحاول أن يدفن مرارته فـى أعماقـه ، وهو يتجه إلى مكتبتـه ، ويبحث فيها عن رسالة الدكتوراه ، التى أهداه إياها الدكتور (محسن) ..

من الواضح أنه لم يعد يقرأ كالماضى ..

ها هى ذى الرسالة فى موضعها ، كما تركها منذ أكثر من عام ..

لم يلق عليها نظرة واحدة ..

يا للعار !

التقط الرسالة ، وجلس على مقعده المفضّل ، يقرؤها فـى اهتمام ..

ودون أن يدرى ، استغرقه الأمر تمامًا ..

وراح يلتهم المعلومات فى نهم عجيب ..

نهم كاد ينساه تمامًا ، بعد أن ترك الجامعة ، وانهمك فى أعمال الشركة مع شريكه وصديقه القديم (صفوت) ..

وكم شعر لحظتها بالإعجاب ، تجاه الدكتور (محسن) ..

لقد جمع عشرات المعلومات الجديـدة والمفيدة ، حول أفعى (الكوبرا) ، وتاريخها القديم ، منذ اتخذها قدماء المصريين آلهة تحمى الملوك ، وأطلقوا عليها اسم (أرايوس) ، وحتى اتخذت منها الأبحاث الطبية الحديثة وسيلة ، لإنتـاج بعض العقاقير الطبية ، المضادة لمرض الروماتيزم ، بالإضافة إلى الترياق المضاد لسموم الثعابين(*)..

وكل هذا بأسلوب مشوّق ..

جذاب ..

رائع ..

وعبر دراسة جادة ، قوية ، جمعت كل عـادات الأفعى ، وأساليبها ، ونقاط قوتها وضعفها ، و ...

(*) حقيقة علمية .

وفجأة ، خفق قلبه فى عنف ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

ودون أن يدرى ، وجد نفسه يهتف :

ـ وجدتها .. وجدتها يا (دينا) .

ثم انتبه فجأة إلى أن زوجته لم تعد بعد ..

وأن عقارب الساعة قد تجاوزت الخامسة ..

وبكل توتر الدنيا ، راح يتساءل فى أعماقه : ترى أين ذهبت زوجته ؟!

أين ؟!

أين ؟!

★ ★ ★

« اهدئى يا (دينا) .. أرجوك .. لقد كنت مضطرًا .. »

هتف (صفوت) بالعبارة فى خفوت ، وهو يحاول باضطراب تهدئة (دينا) ، التى اتسعت عيناها عن آخرهما ، وراحت ترتجف فى عنف ، ودموعها تسيل كالأنهار على وجهها ، ولكنها حدّقت فى وجهه بارتياع ، هاتفة :

ـ من هذا ؟! من هذا ؟!

هتف (صفوت) بالعبارة فى خفوت ، وهو يحاول باضطراب تهدئة (دنيا) ، التى اتسعت عيناها عن آخرهما ، وراحت ترتجف فى عنف ..

أجاب بلهجة أقرب إلى الضراعة :

ـ إنه (مجدى) .. نادل الفندق ، الذى كان بصحبتى ، هو وصديقه المراكبى ، عندما عثرت على الكنز ..

ارتجفت فى عنف ، قائلة :

ـ ولكن .. ولكن ..

ثم انفجرت بغتة ، بكل ذعر الدنيا :

ـ ولكنك قتلته .

انتفض جسده كله مع صيحتها ، وهتف بارتياع :

ـ خفضى صوتك يا (دينا) .. أرجوك .. قلت لك : إننى كنت مضطرًا ..

حدقت فيه مرة أخرى ، فتراجع فى انهيار ، وترك جسده يسقط على أقرب مقعد إليها ، وهو يدفن وجهه بين كفيه ، قائلاً ؛ بصوت أشبه بالنحيب :

ـ لقد ظل يهددنى بكشف أمر الكنز ، وإبلاغ السلطات ، وإفساد العملية كلها ..

هتفت :

ـ كان يمكنك أن تخدعه .. أو ترشوه .

صاح فى مرارة :

ـ لقد حاولت .

ثم عاد إلى نحيبه ، مضيفًا :

ـ ولكننى فشلت .. لقد حاولت إقناعه بأن كل ما عثرنا عليه مجرَّد صندوق ، يحوى ألف قطعة ذهبية ، من العملات الرومانية القديمة ، وأننا سنمنحه وزميله نصيبهما منه ، ولكنه رفض تمامًا ، وأصرَّ على أن يشاركنا زميله الغوص ، لرؤية كل شىء بنفسه .

اتسعت عيناها ، وهتفت فى ذعر :

ـ لا .. مستحيل !

أومأ برأسه ، قائلاً :

ـ هذا ما قلته لنفسى ، وما جعلنا نشتبك فى عنف .. لقد حاول أن يقتلنى .. وكنت .. وكنت ... كنت أدافع عن نفسى .

حدَّقت فيه لحظة ، ثم هزَّت رأسها فى قوة ، مردِّدة :

ـ مستحيل ! مستحيل أن يفسد خطتنا ، وينسف أحلامنا .. مستحيل !

نهض من مقعده ، واتجه نحوها ، قائلاً فى لهفة :

ـ أرأيت أننى كنت على حق ؟!

نقلت بصرها بينه وبين المطبـخ ، والجثـة مهشمة الرأس ، التى تبدو من بابه المفتوح ، وتساءلت بصوت مرتجف :

ـ ولكن ماذا سنفعل به ؟!

أراحـه أن استخدمت صيغة الجمـع فى سؤالها ، فقال فـى سرعة :

ـ لقد فكَّرت فى الموقف جيدًا .. إننى أقيم وحدى ، وعنـدى مبرِّد ضخم ، ولقد أحضرت المنشار الكهربى بالفعل ، و ...

قاطعته فى ارتياع :

ـ رباه ! فيم تفكِّر بالضبط يا (صفوت) ؟ هل ..

قاطعها هو هذه المرة :

ـ هذا هو الحل الوحيد ..

هتفت ، وهى تشيح بوجهها ، وتغلق عينيها فى قوة :

ـ يا للبشاعة !

هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ الرجل مات بالفعل يا (دينا) ، ولا يضير الشاه سلخها بعد ذبحهـــا .. ثم إنه مـن المستحيل تمامًا ، فى مدينـــة مزدحمـــة

ساهرة كمدينة (القاهرة) ، أن ننقل جثة كاملة من عمارة سكنية ، فى شارع رئيسى ، ولكـن لـو تـم تقطيعها إلى أجزاء صغيرة ، وتخزينها فى مبرِّد كبير ، فيمكننـا ، بوساطة حقيبة كبيرة ، أن ...

قاطعته فى حدة :

ـ كفى .. لا أريد سماع هذا ..

تطلَّع إليها لحظة فى صمت ، ثم تراجع فى بطء إلى مقعده ، قائلاً فى حزم :

ـ فليكن .. سأتولَّى أمره بنفسى .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ ولكنك ستعاونيننى على التخلُّص من الآخر ..

هتفت مذعورة :

ـ الآخر ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ نعم .. المراكبى .. (حمَّادى) .. لقد اتصل به (مجدى) من هنا ، وطلب منه أن ينتظرنا ، عند مدخل مدينة السادس من أكتوبر ، فى تمام منتصف الليل ، ويمكننا أن نتخلَّص منه هناك .

صرخت مذعورة :

ـ مستحيل !

قال فى شراسة :

ـ لا يوجد مستحيل ! لقد تورطنا فى الأمر بالفعل ، ولا يمكن أن نخسر كل شىء بعد هذا .

هزَّت رأسها فى قوة ، هاتفة :

ـ مستحيل ! مستحيل !

قال بشراسة أكبر :

ـ لو أننا تركنا المراكبى ، فسيزعجه عدم حضور النادل ، وستراوده الشكوك والمخاوف ، وربما يبلغ الشرطة بالأمر .. بل إنه سيفعل حتمًا .

ارتجفت شفتاها ، واتسعت عيناها فى ارتياع ، وهى تحدِّق فى وجهه ، فتابع فى صرامة وحشية :

ـ لا بد من القضاء عليه يا (دينا) .. بأى ثمن .

ارتجف جسدها كله مع شفتيها ، وهى تقول :

ـ ولكن .. ولكن ما الذى سيمنع البوليس من كشف أمرنا لو فعلنا ؟

هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ لا توجد وسيلة وحيدة لربطنا بالأمر .. المفترض أننا لا نعرف ذلك المراكبى ، ولم نلتق به أبدًا من قبل .. حتى المرة الوحيدة ، التى التقيت به فيها ، كان اللقاء خفيًا ، غير قانونى ، ولم يعرف به سوى (مجدى) .. ذلك الذى يرقد جثة هامدة فى المطبخ .

أدارت عينيها تحدِّق مرة أخرى فى جثة النادل .. قبل أن تقول فى ارتياع :

ـ و (عاصم) .. ماذا عن (عاصم) ؟!

هتف مستنكرًا :

ـ هل تصوَّرت أنه سيوافق على الاشتراك معنا ، فى عمل كهذا ؟!

صاحت مذعورة :

ـ لا .. ولا حتى أن يعلم بحدوثه .

ثم عاد صوتها ينخفض ، متابعة :

ـ ولكن كيف سأقنعه بخروجى فى منتصف الليل وحدى ؟!

انعقد حاجباه فى شدَّة ، ونهض من مقعده ، وراح يدور فى المكان بتوتر ، قبل أن يتوقف ، قائلاً :

ـ عندى الوسيلة .. سأعطيك عقارًا منومًا ، يكفى قرص واحد منه ، ليغرق فى سبات عميق لساعتين أو ثلاث ، وهى كل ما نحتاج إليه لنتمّ عملنا .

ارتجفت من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ، وهى تقول :

ـ سأحاول يا (صفوت) .. سأحاول .

صاح بها فى صرامة :

ـ لا مجال للتردُد .. إما هم أو نحن ..

ثم عاد يميل نحوها ، وهو يخرج من جيبه علبة الحبوب المنوِّمة ، مضيفًا فى شراسة :

ـ إما الثراء والنفوذ والقوة ، أو الخراب والسجن والفقر .. اتخذى قرارك .

خفضت عينيها لحظة ، وعاد جسدها يرتجف كريشة فى مهب الريح ، وهى تدير عبارته الأخيرة فى رأسها ..

إما الثراء والنفوذ والقوة ..

أو الخراب والسجن والفقر ..

ولم يكن القرار صعبًا أو عسيرًا ..

لذا ، فقد مدّت يدها ، والتقطت العلبة من بين أصابعه ، واحتوتها فى قبضتها فى قوة ، وعبارة أخرى تتردّد فى رأسها بقوة ..

إما هم أو ...

أو نحن .

واتقبضت أصابعها على علبة الدواء المنوِّم أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

★ ★ ★

هبَّ (عاصم) من مقعده ، واندفع نحو زوجته بكل لهفة الدنيا ، فور دخولها إلى المنزل ، وهتف :

ـ رباه ! (دينا) أين كنت ؟! لقد بحثت عنك فى كل مكان .

كانت شاحبة ، زائفة ، مرتجفة ، وهو يحتويها فى صدره ، فهتف بارتياع :

ـ ماذا حدث ؟!

ارتجف صوتها بشدّة ، وهى تقول :

ـ إنه .. إنه حادث سيارة .

هتف بدهشة :

ـ ولكن السيارة كانت معى أنا !

أجابته ، وهى تدفن وجهها فى صدره ، حتى لا يقرأ الكذب فى عينيها :

ـ إنها سيارة أجرة .. السائق صدم شخصًا و ... وقتله .. كان مشهد الدم بشعًا .. بشعًا بحق .

انهمرت الدموع من عينيها ، وهى تستعيد مشهد جثة (مجدى) ، الملقاة فى المطبخ ، مما أضفى على انفعالها صدقًا وواقعية ، جعلاه يحتويها بين ذراعيه فى حنان مشفق ، وهو يقول :

ـ ربَاه ! يا لها من تجربة ! هل .. هل احتاجوا إلى شهادتك ، فى قسم الشرطة ؟

بكت أكثر ، وهى تجيب :

ـ نعم .. لقد ذهبت إلى هناك ، وقضيت الوقت كله ، حتى حصلوا على أقوالى ، وسمحوا لى بالانصراف .

قال فى أسف :

ـ ولماذا لم تحاولى الاتصال ؛ لأرسل إليك المحامى على الأقل ؟!

تردَّدت لحظة ، ثم قالت :

ـ قالوا إن الأمر لا يستحق هذا ، ثم .. ثم إنك لم تبتع لى هاتفًا محمولاً بعد .

ثم انفجرت باكية فى عنف ، وراحت تضرب صدره بقبضتيها ، هاتفة :

ـ لماذا لم تفعل ؟! لماذا ؟! لماذا ؟!

ضمها إليه فى حنان ، وربَّت عليها ، قائلاً :

ـ لقد انتهى الأمر يا حبيبتى .. كانت تجربة بشعة ، ولكنها لا تستحق كل هذا .

هتفت مفرغة كل انفعالها :

ـ هل شعرت بذلك الزلزال الآخر ؟! لقد حدث وأنا داخل قسم الشرطة .. لقد تصوَّرت أن القسم سينهار على رءوسنا ، وكنت خائفة .. خائفة جدًا .

تنهَّد ، قائلاً :

ـ إنه ليس زلزالاً .. إنه مجرَّد تابع للزلزال .

هتفت :

ـ ولكن المنازل يمكن أن تنهار معه ، وتدفننا تحتها أحياء .

شعر بالشفقة عليها ، مع ذلك الخوف الرهيب ، الذى يرتجف معه جسدها كله ، وحاول أن يجد وسيلة لتهدئتها ، فلم يجد أمامه سوى أن يهتف فجأة :

- لقد عثرت على الوسيلة .

أبعدت رأسها عن صدره ، لتسأله فى حذر :

- أيةَ وسيلةَ ؟!

أجاب فى حماس :

- وسيلةَ إبعاد أفاعى (الكوبرا) عن الكنز .

كانت وسيلته ناجحة للغاية ، فقد جفت دموعها بغتة ، ورقص قلبها فى صدرها ، وهى تهتف فى لهفة :

- حقًا ؟!

أجابها فى حماس حقيقى ، وهو يقودها فى رفق إلى الأريكة :

- نعم .. حقًا .. الدكتور (محسن) تحدث ، فى رسالة دكتوراه عن أفعى (الكوبرا) ، عن عشب برى ، ينمو فى صحراء (مصر) ، فى منطقتى (سوهاج) و (قنا) ، له رائحة خاصة ، تنفر منها أفعى (الكوبرا) ، والبدو هناك يستخدمونه لإبعادها ، ومنع اقترابها من خيامهم فى أثناء النوم(*) .

ارتجف صوتها من فرط الانفعال هذه المرة ، وهى تسأله :

(*) حقيقة .

- وهل .. هل يمكننا الحصول على ذلك العشب ؟!

هتف بابتسامة كبيرة :

- بالتأكيد .

وجدت نفسها تقفز فجأة من مقعدها ، وتصفق فى حماس ، صائحة :

- رائع .. عظيم .

ابتسم هو ابتسامة كبيرة ، فى حين شعرت هى بالدهشة ، مع كل هذا الحماس ، حتى إنها قاومته بشدة ، لتسأله :

- ومتى يمكننا الحصول عليه ؟!

اعتدل ، مجيبًا :

- لقد اتصلت بالدكتور (محسن) منذ ساعة تقريبًا ، وأقنعته أننى أقوم ببضعة أبحاث ، حول هذا العشب ، وأننى أحتاج إلى كمية كبيرة منه ، كمحاولة لفتح أسواق تصديرية له فى الخارج ، ولقد تحمس جدًا للأمر ، وأخبرنى أنه سيتصل بصديق له يقيم فى (الأقصر) ، ليحضر لنا أكبر كمية ممكنة من العشب ، قبل مساء الغد .

هتفت فى لهفة :

- أيعنى هذا أننا نستطيع القيام بالعملية مساء الغد ؟!

انعقد حاجباه فى شدّة ، وهو ينهض ، قائلاً فى عصبية :

ـ بهذه السرعة .

كاد قلبها يهوى بين قدميها ، من فرط القلق ، وهى تقول :

ـ السرعة واجبة ، فى مثل هذه الأمور .

قال فى حدة :

ـ وما الداعى إليها ؟! الكنز هناك منذ آلاف السنين ، فما الذى يجعل استخراجه عاجلاً إلى هذا الحد ؟

تضاعف قلقها وتوترها ، وحاولت إقناعه فى لهفة ، وهى تقول بنعومة مصطنعة :

ـ ربما يكشفه غيرنا .

قال فى حنق :

ـ ما من أحمق سوانا ، يغوص فى بحيرة كهذه ؟!

أدركت أن رصاصتها قد طاشت هذه المرة ، ولم تشأ أن تخبره بما فعله شريكه ، حتى لا يصاب بالذعر ، ويفرّ من العملية كلها ، لذا فقد راح عقلها يبحث فى لهفة عن مبرّر آخر ، ثم لم تلبث أن هتفت :

ـ لقد أخبرتنى ليلة أمس ، أن سبب وجود تلك الفجوة فى

القاع ، هو أن ضغط الهواء المحتبس داخلها يمنع الماء من إغراقها ، مما حفظها جافة ، تحت البحيرة ، طوال كل هذه السنين .

أجاب فى حذر :

ـ إنها نظرية علمية سليمة ، والغواصات القديمة جدًا كانت أشبه بناقوس مقلوب ، يمنع الهواء بداخله ارتفاع سطح الماء .

هتفت :

ـ عظيم .. ما الذى يمكن أن يحدث إذن ، بعد أن انفتح ذلك الشق ، فى قاع البحيرة ؟! أليس من المحتمل أن ينفد الهواء ، ويرتفع سطح الماء داخل الفجوة ، فيغرق كل شىء ؟!

انعقد حاجباه فى شدّة ، وهو يدرس هذا الاحتمال ، قبل أن يغمغم :

ـ هذا محتمل بالتأكيد .. الاحتمال نفسه هو الذى منعنى من استخدام الدخان لطرد الأفاعى ، فقد خشيت أن تلتهم النيران كل الهواء فى الفجوة .

قالها ، ثم التقط نفسًا طويلاً فى عصبية ، مستطردًا :

ـ فليكن .. دعينا نفعلها مساء الغد .

برقت عيناها فى ظفر ، وهى تهتف :

ـ كنت أعلم هذا .. كنت أعلم أنك لن تخذلنى أبدًا .

وفى نعومة أفعى ، طبعت على خده قبلة دافئة ، فى نفس اللحظة التى داعبت فيها علبة الأقراص المنوّمة فى جيبها ، ثم لم تلبث أن تراجعت بابتسامة كبيرة ، قائلة :

ـ والآن دعنى أعدّ لك كوبًا من الشاى .. كوبًا يختلف عن كل ما شربته فى حياتك .

قالتها ، واتسعت ابتسامتها ، وصارت أكثر شبهًا بابتسامة الأفعى ..

أفعى (الكوبرا) ...

المصرية ..

★ ★ ★

« هل ظهر مفعول الأقراص بسرعة ؟! »

ألقى (صفوت) سؤاله فى اهتمام ، وهو ينطلق بسيارته ، فى طريق (الفيوم) ، قبيل منتصف الليل بربع الساعة ، فزفرت (دينا) فى توتر ، وهى ترتدى قفازها الجلدى ، مغمغمة :

ـ (عاصم) لا يتناول أية أدوية أو عقاقير .. إنه حتى لا يدخن ، لذا فقد استغرق فى نوم عميق ، بعد أقل من الساعة .. إنه حتى لم يكمل كوب الشاى .

تنهّد مغمغمًا :

ـ عظيم .

جمعهما الصمت لثلاث دقائق كاملة بعدها ، وكل منهما غارق فى أفكار مختلفة متضاربة ، ثم لم يلبث هو أن قطع هذا الصمت ، قائلاً :

ـ هل ارتديت قفازك ؟!

أجابته فى عصبية :

ـ نعم .. أشعر الآن أننا اثنان من القتلة المحترفين .

قال فى صرامة :

ـ للضرورة أحكام .

تمتمت فى خفوت شديد :

ـ أعلم هذا .

وصمتت لحظة أخرى ، ثم سألته فى توتر بالغ :

ـ أأنت واثق من أنه سيأتى وحده ؟!

أجاب ساخرًا :

ـ لست أظنه بالحماقة الكافية ، ليضيف إلى القسمة شريكًا آخر .

مطَّت شفتيهـا دون تعليق ، وحـاولت أن تستقر فى مقعدها ، وهى تتطلَّع إلى ظلام الطريـق ، وأخذ ذهنهـا يسترجع تفـاصيل الخطـة التى وضـعها هـو ، قبل أن تنتفض فجـأة على مقعدها ، هاتفة :

ـ لا .. لن يمكننى أن أفعل هذا .

انعقد حاجباه فى صرامة شديدة ، وهو يقول :

ـ بل ستفعلينه .

هتفت ، وكل ذرة فى كيانها ترتجف :

ـ مستحيل ! إننى لم أفعل هذا من قبل قط .

صاح فى حدة :

ـ وهل فعلته أنا ؟! هـل كنـت قـاتلاً محترفًـا طيلـة عمـرى ؟! إنها الضرورة .. ألا يمكنـك استيعاب هذا ؟! الضرورة .. أنا لـم أخطِّط لقتل (مجدى) ، عندمـا جـاء لابـتزازى .. لقـد حـدث ما حدث ، دون حتى أن أدرك أنه قد حدث .

بكت فى حدة ، وهى تهتف :

ـ ولكننا سنفعلها عمدًا هذه المرة .

قال فى غضب :

ـ للضرورة أحكام .

صاحت :

ـ ما دمت تؤمن بهذا ، فلماذا لا تفعلها أنت إذن ؟!

صرخ باتفعال هادر :

ـ لأنه لن يمنحنى الفرصة لهذا .. أنت وحدك يمكنك مباغتته .. هل فهمت الآن ؟!

صرخت بدورها :

ـ لا .. لا أفهم .

وهنا ضغط فرامل السيارة بكل قوته ، فتوقَّفت بحركة حادة ، وأطلقت إطاراتها صريرًا مخيفًا ، شقَّ سكون الليل ، واندفع جسد (دينا) إلى الأمام فى عنف ، فصاحت فى غضب عصبى :

ـ لماذا فعلت هذا ؟! كدت تقتلنى .

استدار إليها بكل غضب الدنيا ، هاتفًا :

ـ اسمعينى جيِّدًا .. إنها ليست لعبة أو مزحة .. إنها لحظة تقرير مصير .. إما نحن أو هم .. إما الـثراء بـلا حـدود ، أو السجن لخمسة عشر عامًا على الأقل .. أيهما تفضلين ؟!

امتقع وجهها بشدَة ، وهى تحدِّق فى وجهه بارتياع ، فتابع فى صرامة :

ـ إنه كنزنا يا (دينا) ، وثراء بهذا الحجم لن يأتى بسهولة ، أو بالأحلام والتمنيات وحدها .. إنه يحتاج إلى تضحيات .. الكثير من التضحيات .

خفضت عينيها ، متمتمة فى مرارة :

ـ أعلم هذا .

التقط نفسًا عميقًا ، وهو يتراجع ، قائلاً :

ـ ثم إنها ضربة واحدة ، تصبحين بعدها أغنى امرأة ، فى العالم كله .. ألا يستحق الأمر هذا ؟!

عضت شفتيها فى توتر ، وهى تومئ برأسها إيجابًا ، فتنهَّد فى ارتياح ، قائلاً :

ـ عظيم .

وعاد ينطلق بالسيارة ، مضيفًا فى حزم :

ـ ستهبطين قبل نقطة اللقاء بنصف الكيلومتر كما اتفقنا .

أومأت برأسها إيجابًا ، دون أن تتفوَّه بحرف واحد ، وذهنها يسترجع كلماته .

إما نحن أو هم ..

الثراء أو السجن ..

وأدركت عندئذ أنها قد اقتحمت بالفعل طريق الدم ..

ولم يعد هناك سبيل للعودة ..

على الإطلاق .

★ ★ ★

٥ ـ بريق الذهب ..

« أين (مجدى) ؟! »

هتف (حمّادى) المراكبى بالسؤال فى عصبية ، عند مدخل مدينة (السادس من أكتوبر) ، وهو يفحص سيارة (صفوت) ببصره فى توتر ..

« لقد فضّل البقاء فى (مصر) .. »

« مستحيل ! لقد اتفقنا على أن نلتقى هنا .. »

« لم يعد هذا باستطاعته .. »

« لماذا ؟! »

وهنا ظهرت هى من خلفه ..

برزت من وسط الظلام ، حاملة ذلك القائم المعدنى السميك ..

وقبل أن ينتبه إليها ، كانت قد أصبحت على مسافة متر واحد منه ، وهو يهتف فى ذعر عصبى :

ـ أين (مجدى) ؟! ماذا فعلت به ؟!

نظرة عينى (صفوت) جعلته ينتبه إلى وجود شخص ما خلفه .

فاستدار بسرعة ..

وصرخ (صفوت) :

ـ هيَا .

وهوت هى بالقائم المعدنى ..

بكل قوتها ..

و ..

« لا .. لا .. » ..

انطلقت الصرخة من حلقها ، وهى تهب فزعة فى فراشها ، فاندفع نحوها (عاصم) ، واحتواها بين ذراعيه ، وهو يقول بحنان مشفق :

ـ رويدك يا حبيبتى .. رويدك .

وضمها إليه فى دفء ، وهو يهمس فى أذنها :

ـ أهو كابوس الزلزال مرة أخرى ؟!

بكت على كتفه فى حرارة ، وهى تقول :

ـ نعم .. إنه هو ..

تنهّد فى قوة ، وضمها إليه أكثر ، وهو يقول :

ـ ماذا أفعل لأنتزع ذلك الخوف من قلبك ؟!

وهوت هى بالقائم المعدنى .. بكل قوتها .. و!! ..

لم تجد ما تجيبه به ، فواصلت البكاء على كتفه بحرارة أذابت قلبه ، وعقلها يستعيد ما فعلته أمس ألاف المرات ..

لقد قتلت المراكبى بمنتهى العنف ..

والخوف ..

قتلته لأنها خافت أن يُبلغ الشرطة ..

خافت من السجن ..

والضياع ..

قتلته لأنها خشيت أن تفقد الكنز ..

حلم الثراء ..

والنفوذ ..

والقوة ..

ولقد ظلت تبكى وترتجف ، طوال طريق العودة ، دون أن يحاول (صفوت) تهدئتها لحظة واحدة ..

وعندما وصلت منزلها ، فى الواحدة صباحًا ، كان أوّل ما فعلته هو أن ابتلعت قرصين كاملين ، من علبة الأقراص المنوّمة ..

كان (عاصم) ما زال غارقًا فى نوم عميق ، فاندسّت إلى جواره ، وحاولت أن تغرق فى النوم مثله ..

ولكن حتى مع الأقراص المنوِّمة ، لم يكن الأمر سهلاً ..

لقد ظلَّت ترتجف لساعة أخرى على الأقل ، قبل أن يأتى القرصان مفعولهما ، وتنام .. ولم يكن نومها هادئًا ، بأى حال من الأحوال ..

لقد عاودها المشهد فى أحلامها مائة مرة ..

بل ألف مرة ..

لقد راح عقلها يستعيده ..

ويستعيده ..

ويستعيده ..

بلا توقُّف ..

أو هوادة ..

أو رحمة ..

ولكنه الثمن ..

الثمن الذى عليها أن تدفعه ، حتى تظفر بالكنز ..

بالثروة ..

بالنفوذ ..

« متى سنقوم بالعملية ؟! »

ألقت السؤال ، بكل ما يملأ كيانها من توتر وانفعال ، فتراجع ينظر إليها فى دهشة ، جعلتها تكرِّر ، بكل عصبية الدنيا :

ـ متى ؟!

تنهَّد فى عمق ، وتراجع أكثر ، مجيبًا :

ـ الأعشاب ستصل فى الخامسة تقريبًا ، ولو أن (صفوت) مستعد ، فـ ...

قاطعته فى لهفة :

ـ إنه مستعد .

سألها بدهشة :

ـ ولماذا أنت واثقة هكذا ؟!

هزَّت كتفيها فى عصبية ، قائلة :

ـ أنت تعرف (صفوت) .

حدَّق فى وجهها لحظة ، وكأنما لم يقتنع ما نطقته ، ثم لم يلبث أن هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ يمكننا أن نقوم بها الليلة ، كما اتفقنا من قبل .

اندفعت نحو الهاتف ، قائلة :

ـ عظيم .. سأبلغ (صفوت) .

ثم توقَّفت بغتة ، والتفتت إليه ، مستدركة فى ارتباك :

ـ أعنى أنه عليك أن تبلغه ؛ ليعد أدوات الغوص لثلاثتنا على الأقل .

هتف بدهشة مستنكرة :

ـ ثلاثتنا ؟! ماذا تعنين بقول ثلاثتنا هذا ؟!

أجابته بعصبية شديدة :

ـ أعنى أننى سأغوص معكما بالطبع ..

هتف فى حدة :

ـ مستحيل ! لا يمكننى أن أسمح بهذا أبدًا .

صاحت فى ثورة :

ـ ومن المستحيل أن أضيع فرصة إلقاء نظرة كاملة على كنز كهذا .. إنه مشهد لا يراه المرء كل يوم .

حدَّق فى وجهها لحظة ، ثم هزَّ رأسه فى قوة ، هاتفًا :

ـ مستحيل !

صرخت :

ـ سأغوص معكما ، مهما قلت أو فعلت .. إننى أجيد الغوص مثلكما ، وثلاثتنا نغوص معًا فى البحر الأحمر ، منذ قضينا

شهر العسل هناك .. (صفوت) هو الذى علمنا أن نفعل .. أتذكر هذا .

هزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ المشكلة ليست فى إجادتك للغوص من عدمه .

هتفت :

ـ ما المشكلة إذن ؟!

خفت صوته ، وهو يجيب :

ـ لست أرغب فى تجشيمك المشقة .

صرخت :

ـ مشقة ؟! هل تعتبر رؤية كنوز (قارون) مشقة ؟!

زفر فى توتر ، وتطلَّع إليها لحظة ، ثم قال :

ـ لست أدرى .. لست أشعر بالارتياح .

رقة صوته جعلتها تتقمَّص مرة أخرى طبيعة الأفعى ، وتتمسَّح به فى نعومة ، قائلة :

ـ أرجوك يا (عاصم) .. سأندم ما تبقى لى من العمر ، لو أضعت فرصة كهذه .

غمغم فى تخاذل :

ـ لن يكون هـذا بالأمـر السـهل .. إننـا سنحمل الكثير من الأدوات .. مصـابيح الإضـاءة ، والأعشـاب ، والأجولـة التـى سنعبئها بالذهب والمجوهرات ، و ...

قاطعته فى لهفة :

ـ عظيم .. فى هذه الحالة تصبح ستة أياد أفضل من أربع ..

كان قولها منطقيًا ، وعلى الرغم من هذا فلم يشعر بالارتيـاح أبدًا ..

شىء ما فى أعماقه جعله يشعر أن تلك الليلة تحمل لثلاثتهـم موعدًا غامضًا ..

موعدًا مع القدر ..

مع الحياة ..

أو الموت ..

★ ★ ★

مطَّ ضابط المبـاحث شفتيه ، وهـو يراقـب رجـال الإسـعاف ، الذين يحملون جثة المراكبى (حمَّادى) ، وغمغم :

ـ أراهن أنها جريمة ثأر أخرى .

سأله رئيسه فى هدوء :

ـ ولماذا تصوَّرت أنها جريمة ثأر ؟!

هزَّ الضابط كتفيه ، وقال :

ـ إنها ليست جريمة سرقة بالتأكيد ، فحافظة نقوده فى جيبـه ، بكل ما تحويه ، وهو يرتدى ساعته أيضًا .

قال رئيسه :

ـ وهويته تقول : إنه مراكبى بسيط مـن (الفيـوم) ، وهـذا يستبعد احتمالات الثأر أيضًا .

انعقد حاجبا الضابط ، وهو يقول :

ـ ولكنه ليس حادث سيارة بالتأكيد ، فلقد تهشَّم رأسه بجسم صلب ، وبضربة واحدة تقريبًا .

وافقه رئيسه بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ إنها جريمة قتل ، ما من شك فى هذا ، ولكن من الواضح أنها سترهقنا كثيرًا ، فى البحث عن أسبابها ومبرراتهـا ، والمشتبه فيهم بارتكابهـا ، فهنـاك جزء غامض للغـاية فى الأمـر ، وهـو لماذا جاء الرجل إلى بقعة كهذه ، ليلقى حتفه فيهـا ، مـا دامت ليست حادثة سيارة ، أو جريمة سرقة ؟!

غمغم ضابط المباحث :

ـ هذا ما علينا أن نبحث عنه .

ثم زفر فى توتر ، قبل أن يضيف :

ـ المشكلة أنه فى بعض الأحيان تكون الجريمة واضحة ، ولكنك تفشل تمامًا فى العثور على دليل واحد ، يساعد فى كشف الجناة ، وأكثر ما يحنقنى فى هذا أنهم يفلتون من العدالة فى النهاية .

هزَّ رئيسه رأسه ، وقال :

ـ مطلقًا .. ربما يفلتون من القانون ، ولكن ليس من العدالة ..

سأله فى حيرة :

ـ وما الفارق ؟!

أجابه فى حزم :

ـ فارق ضخم للغاية .

ثم تنهَّد ، وشرد بصره ، قبل أن يضيف :

ـ فالعقاب الدنيوى ، الذى يعتمد على القانون ونصوصه ، والعثور على الأدلة والبراهين ، أمر قاصر للغاية ، وكثيرًا ما يصيبنا بالإحباط والغيظ ، عندما نتيقَّن من الجانى ، ثم لا نمتلك دليلاً لإدانته ، أما العدالة ، فهى أمر يحفظه الخالق (عزَّ وجلَّ) ، ونتيجته لا يمكن أن يفلت منها أحد ، فمن يعمل مثقال ذرة

خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره(*).. والله (سبحانه وتعالى) منتقم جبار ، وهو أعدل العادلين ، وله تصاريفه الخاصة ، التى تجعلنا نؤمن دومًا بأن الجانى لا بد أن يلقى جزاءه .. حتى ولو لم ندرك هذا أو نره .

وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف فى خشوع :

ـ وهذه هى العدالة .

نطقها ، فران عليهما صمت مهيب ..

صمت يحمل كل دلائل الإيمان بالعدالة ..

الحقة ..

★ ★ ★

« أأنتما مستعدان ؟! »

نطق (صفوت) العبارة فى همس ، داخل ذلك الزورق المطاطى الكبير ، الذى نقل ثلاثتهم إلى قلب بحيرة (قارون) ، وسط ظلام الليل ، فتمتم (عاصم) فى عصبية :

(★) القرآن الكريم : بسم الله الرحمن الرحيم * فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره * . الآيتان ٧ و ٨ من (سورة الزلزلة) .

ـ أنا مستعد .

وهتفت (دينا) فى لهفة :

ـ وأنا كذلك .

كان ثلاثتهم يشعرون بتوتر بالغ ، بعد تلك المغامرة ، التى حملتهم فى قلب الليل إلـى (الفيـوم) ، وجعلتهـم يتسـللون بزورقهم المطاطى إلى الموقع ، الذى يحفظـه (صفوت) عن ظهر قلب ، فى قلب البحيرة ..

ولكن توترهم هذا كان مشوبًا بلهفة حقيقية ..

لهفة لبلوغ ذلك الشق ، ورؤية الكنز ..

كنز (قارون) ..

وفى حزم ، قال (صفوت) :

ـ الماء بارد ، ولكن ثياب الغوص المطاطية ستحمى أجسادنا ، وتخفيها أيضًا فى ظلام الليل .. والمصابيح لن نشعلها إلا على عمق أربعة أمتار ، حتى لا تكشف وجودنـا .. احرصا على أن تتبعانى طوال الوقت ، فأنا وحدى أعرف الطريق إلى الشق .

انعقد حاجبا (عاصم) دون أن يجيب ، فى حين لهثت (دينا) من فرط الانفعال ، وهى تقول :

ـ بالطبع .. بالطبع .

وضع منظار الغوص على عينيه ، وهو يتابع أوامره :

ـ كل منا سيحمل مصباحه .. أنا سأحمل الأجولة الفارغة فى طريق الذهاب ، و (عـاصم) سيحمل حقيبـة الأعشـاب ، وفى طريق العودة سيحمل كل منا جوالاً .

ثم ابتسم ، مكملاً :

ـ من الذهب والمجوهرات .

ازداد انعقاد حاجبى (عاصم) ، فى حين برقت عينا (دينا) ، وهى تهتف فى حماس :

ـ نعم .. نعم ..

ابتسم (صفـوت) فـى ثقـة ، ثـم وضـع منظـم أسـطوانة الأكسجين فى فمه ، وأشار بيده ، قائلاً :

ـ هيّا .

وخلال نصف دقيقة فحسب ، كان ثلاثتهم فى قلب البحيرة .

بحيرة (قارون) .

كان التوتر يشمل كل خلية فى أجسادهم ، وهم يغوصون ..

ويغوصون ..

ويغوصون ..

وعند عمق أربعة أمتار تقريبًا ، أشعل كل منهم مصباحه ..

كان المشهد يبدو رهيبًـا للغايـة ، مـع عكـارة القـاع ، وظـلام الليل ، حتى إن (دينـا) قد تسـاءلت فـى حيرة : كيف يعرف (صفوت) طريقه ، وسط هذه المياه ؟!

إنهـا ، وعلـى الرغـم مـن ضـوء المصبـاح ، لاتكـاد تـرى ما أمامها .

ولكنهم يغوصون أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

حتى بدا القاع ..

كان طينيًا ، صخريًا ، ومعكرًا إلى حد كبير ..

ثم فجأة ، ظهر ذلك الشق ..

كان الطين فى القاع قد غمر جزءًا منـه ، علـى نحـو جعل قلبها يخفق فى قوة ، مع خوفها من أن ينطمر الشق تمامًا مـع الوقت ، فـلا يمكنهـم العثـور عليـه ، فـى الرحلـة التاليـة .. (صفوت) يقول : إنهم يحتاجون إلى عشر رحلات على الأقل ، حتى يمكنهم نقل الكنز كله ..

عشر رحلات !

يا لها من ثروة طائلة !!

دفعهـا الحمـاس إلـى عبـور الشـق ، خلـف (صفـوت) و (عاصم) ، على الرغم مـن المشـهد الرهيب ، الـذى تصنعه أضواء المصابيح ، مع الظلام والعكارة ..

وعندمـا بـدءوا فـى عبـور الشـق الأفقـى ، راح حماسـها يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

ثم خفق قلبها فى عنف ، مع بلوغهم نهايته ، حيث تلك الفجوة ، والبحيرة الداخلية ..

فى البداية صعد (صفوت) ..

ثم لحق به (عاصم) ..

وجاءت هى فى النهاية ..

ومع كل متر تقطعه ، كان قلبها يخفق بعنف أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم وجدت نفسها فجأة ، فوق سطح الماء ، و (صفوت) يهتف ، بكل لهفة وطمع وجشع وانفعال الدنيا :

ـ هل تريان ؟! ها هو ذا الكنز ..

وبكل لهفتها ، أدارت ضوء المصباح ..

وتألّقت الأضواء ..

وأضيئت الفجوة كلها بذلك البريق ..

بريق الذهب ..

وعندئذ ، كاد قلبها يتوقّف من فرط الانبهار ، وهى تحدّق فى أطنان الذهب والتحف والمجوهرات ..

الآن فقط أدركت شعور (على بابا) ، فى القصة الشعبية الشهيرة ، عندما دخل مغارة الأربعين لصًّا ، ووجد أمامه كل هذا القدر من المجوهرات والذهب ..

ولكنه حتمًا ، لم ير ربع ما تراه أمامها الآن ..

إنه كنز هائل ، لا مثيل له ، حتى فى أكثر الروايات والأساطير إغراقًا فى الخيال ..

كنز لن تكفى تلك الرحلات العشر لنقل نصفه ، مهما أمكنهم حمله ..

وبكل دهشة الدنيا ، هتف (عاصم) :

ـ ربّاه ! إذن فالكنز حقيقى !!

أطلق (صفوت) ضحكة عالية ، تموج بالانفعال ، وهو يهتف :

ـ قل لى يا رجل .. ما الذى تراه أمامك بالضبط ؟! حقيقة أم خيال ؟!

هتفت (دينا) بلهفة رهيبة :

ـ بل حقيقة .. حقيقة ..

قالتها ، ثم انفجرت هاتفة فى انفعال جارف ، فتنهّد (عاصم) ، وغمغم :

ـ هل كان منسوب المياه مرتفعًا هكذا ، عندما جئت أوّل مرة ؟!

هزّ (صفوت) رأسه ، قائلاً فى قلق :

ـ كلاّ .. لم يكن كذلك .

أجاب (عاصم) فى حزم :

ـ من الواضح إذن أن المياه ستغمر هذا الكهف ، بعد عدة أيام على الأكثر ..

هتفت (دينا) فى ارتياع :

ـ هل تعنى أننا لن نتمكّن من نقل الذهب كله ؟!

أجاب فى توتر :

ـ المياه لا تفسد الذهب أو المجوهرات .. ثم إن ما ننقله منها خلال أسبوع واحد ، سيكفينا للحياة فى رغد ونعيم ، حتى آخر أيام حياتنا .

قالت بجشع عجيب :

ـ لا .. لن نترك قطعة واحدة منه .. أريده كله .. كله ..

حدّق فيها بدهشة ، وكأنما يراها لأوّل مرة ، وشعر وكأنها امرأة مختلفة تمامًا ، عن تلك التى أحبها وتزوّجها ، ولكنه حاول أن يتجاهل هذا ، وهو يغادر فجوة الماء ، قائلاً :

ـ هل ستظهر الأفاعى الآن ؟!

أجابه (صفوت) بقلق شديد :

ـ هذا ما يحدث دائمًا .

توقّف (عاصم) على الجزء الجاف ، قائلاً :

ـ لست أرى أيها هنا ..

غمغم (صفوت) ، وهو يتلفّت حوله فى توتر :

ـ لا تتعجّل .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع فجأة رأس أفعى كبيرة ، من بين قطع الذهب والمجوهرات ..

ثم تلتها ثانية ..

وثالثة ..

وعاشرة ..

وعشرات ..

من كل مكان برزت أفاعى (الكوبرا) ..

مئات منها ارتفعت رءوسها ، تألّقت عيونها ، تحت أضواء المصابيح وبريق الذهب ..

وشهقت (دينا) فى هلع ، وهى تهتف :

ـ ربَاه ! ربَاه !

وارتجف جسد (صفوت) كله ..

أما (عاصم) ، فقد بدا أكثرهم هدوءًا وتماسكًا ، وهو يفتح حقيبة الأعشاب ، قائلاً :

ـ يا للعجب ! إنها أفعى (ناجا هاجى) بالفعل .. فى عدة أطوار منها .. لا يوجد مبرِّر علمى واحد لوجودها على قيد الحياة ، طوال كل هذه السنين .

غمغم (صفوت) فى عصبية :

ـ إنها لعنة الفراعنة .

هزَّ (عاصم) رأسه ، وهو يراقب فى حذر تلك الأفاعى ، التى اتجهت كلها نحوه ، مغمغمًا :

ـ هذا ليس مبرِّرًا علميًا .

اتسعت عينا (دينا) فى ارتياع ، عندما شاهدت تلك الأفاعى ، وهى تنقضّ كلها على (عاصم) ، وانطلقت من حلقها صرخة رعب مدوية ، جلجلت وسط فراغ الكهف ، على نحو ضاعف من رهبتها وعنفها ..

ولكن (عاصم) فتح الحقيبة فى سرعة ، وهو يهتف :

ـ فلنـر الآن ما إذا كانت أبحاثك صحيحة أم لا يا دكتور (محسن) .

وبكل قوته ، ألقى محتوياتها نحو الأفاعى .

ولثوان ، تجمَّدت كل أفاعى (الكوبرا) ..

وتجمَّدت معها دماء (صفوت) و (دينا) ..

ثم راحت الأفاعى تتراجع فى بطء ..

وتتراجع ..

وتتراجع ..

وفى حماس ، التقط (عاصم) كومة من العشب ، ودفعها إلى الأمام أكثر ..

وتراجعت الأفاعى أكثر وأكثر ..

وفى حماس ، هتف (صفوت) وهو يصعد إلى اليابسة :

ـ إنها تتراجع .. لقد نجحنا .. لقد نجحنا ..

لحقت به (دينا) ، وهى تلهث فى عنف وقوة ، من فرط الانفعال ، غير مصدِّقة أنهم قد تجاوزوا تلك العقبة ..

وأن الكنز قد أصبح فى قبضتهم ..

لم تُصدِّق ، حتى التقط (عاصم) قطعة كبيرة من الذهب ، مغمغمًا :

ـ آه .. إنه ذهب حقيقى بالفعل ..

عندئذ فقط صرخت ، بكل فرحة وسعادة وظفر الدنيا ، واندفعت بكيانها كله نحو أطنان الذهب والمجوهرات ، وراحت تلتقط الحلى والماسات بلهفة بلا حدود ، وهى تصرخ :

ـ لقد نجحنا .. نجحنا .. الكنز كله صار لنا .. كنز (قارون) كله .. كل هذا الذهب والمجوهرات ملكنا .

ثم التفتت إلى (صفوت) ، مواصلة بنفس الانفعال الجنونى :

ـ إنه يستحق يا (صفوت) .. يستحق كل ما فعلناه ..

اتسعت عينا (صفوت) فى ارتياع ، ولكنها واصلت صارخة وضاحكة فى عنف :

ـ يستحق حتى قتلنا لذلك المراكبى الغبى الـ ...

لم تكد الصرخة تتجاوز شفتيها ، حتى انتهت فجأة إلى ما فعلته ، فاستدارت تحدّق فى زوجها بذعر هائل ..

ذعر لم ينافسه سوى ذلك الذعر الرهيب ، المطلّ من عينى (عاصم) وملامحه ..

فلقد صدمته عبارتها الأخيرة ..

صدمته إلى حد لا يمكن تصوّره ..

على الإطلاق .

★ ★ ★

٦ ـ العدالة ..

هوى قلب (صفوت) بين قدميه ، وهو يحدّق فى وجه (عاصم) ، الذى بدا مصدومًا مصعوقًا ، على نحو جعل (دينا) تتراجع فى ارتياع ، قائلة :

ـ لم نكن نرغب فى هذا يا (عاصم) ، ولكننا اضطررنا ..

هتف بكل غضب ومقت واستنكار الدنيا :

ـ اضطررتما ؟! أنت ومن ؟! وهذا الحقير ؟!

قال (صفوت) فى عصبية :

ـ (عاصم) .. إننى ..

قاطعه فى ثورة :

ـ اخرس .

ثم احتقن وجهه بشدّة ، وهو يهتف فى مرارة :

ـ أنتما ؟! أنتما معًا ؟! أتخدعانى إلى هذا الحد ؟! تخوناننى معًا ؟! زوجتى ، وأقدم صديق لى ؟! أنتما ؟!

صاحت (دينا) مذعورة :

ـ لا يا (عاصم) .. أنا لم أخنك قط .. (صفوت) لم يمسّ شعرة واحدة منى ..

صرخ بكل غضبه :

ـ ولكنك شـاركته جريمـة قتل .. أرقت معه الدم ، دون أن أعلم أو أدرى ..

قالت فى ضراعة :

ـ صدقنى يا (عاصم) .. لم أكن أرغب فى عمل هذا قط .

صرخ :

ـ ولكنك فعلته .

ارتجف (صفوت) ، وهو يقول :

ـ (عاصم) .. حاول أن تفهمنا .. (مجدى) والمراكبى هددا بكشف السرَ ، وأرادا منعنا من الفوز بالكنز .. ذلك الكنز الهـائل ، الذى تراه أمامك .. ولم يكن باستطاعتنا أن نسمح لهما ، ولكن قتلهما لم يكن واردًا ، و ...

قاطعه بصرخة مذعورة :

ـ قتلهما ؟! أتعنى أنكما أرقتما الدم مرتين ..

صاحت (دينا) :

ـ من أجـل الكنز يـا (عـاصم) .. مـن أجـل الثراء والنفوذ والقوة .. من أجل المستقبل .

صرخ :

ـ أى مسـتقبل ؟! المسـتقبل المغمـوس فى الـدم والقتـل والجريمة ؟! هل تصوَرتما أن الثروة الطائلة ستغسل ضميريكما ، وتغفر ذنوبكما ؟! هراء .. كل ما تريانه أمامكما ، وما ارتكبتمـا من أجله كل هـذا ، لم يكف لإنقاذ (قارون) نفسـه ، عنـدما خسف به اللّه (سبحانه وتعالى) الأرض .. لم يعفه من جحيم أبدى ، يأتى الفاسق حتمًا ، طال عمره أم قصر ..

انتفض جسد (صفوت) كله ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هذه الفلسفة لن تفيد الآن يا (عـاصم) .. الوقت يمضى فى سرعة .. دعنا ننقل الذهب أوَلاً ، ثم ..

قاطعته صيحة (عاصم) الهادرة :

ـ كلاَّ .

اتسعت عينا (دينا) فى ارتياع ، وهى تقول :

ـ كلاَّ ؟! ماذا تعنى ؟!

أجابها فى حدة ، وهو يلوِّح بذراعه فى قوة :

ـ أعنى أنه لن يكون هناك ذهب .. لن ننقل قطعة واحدة من هنا .

صرخ (صفوت) :

ـ هل جننت ؟!

أجابه (عاصم) ، بصرخة مماثلة :

ـ بل عدت إلى صوابى .. عاد إلىّ عقلى وضميرى .

ورمى زوجته بنظرة قاسية ثائرة ، وهو يتابع :

ـ كان ينبغى أن أدرك منذ البداية أن الثراء غير الشرعى لا يمكن أن يفيد .. ولا يمكن أبدًا أن يحفر طريق الخير .. الثراء غير المشروع خدعة من عمل الشيطان .. خدعة تدفع البشر ، من ضعاف النفوس إلى الخديعة والغش ، والسرقة .. والقتل أيضًا .

ارتجفت (دينا) بشدة ، وهى تقول فى ارتياع :

ـ (عاصم) .. لا تقل لى إنك ستتخلَّى عنا الآن .

صرخ :

ـ بل سأقولها .. سأقولها ألف مرة .. إننى لن أتخلَّى عنكم فحسب ، ولكننى سأخرج من هنا مباشرة إلى أقرب قسم للشرطة .

صرخت متراجعة فى رعب ، فى حين هتف (صفوت) :

ـ لقد جننت .. من المؤكَّد أنك قد جننت .

تابع (عاصم) فى صرامة ، وهو يضع منظار الغوص على عينيه ، ويتجه فى حزم إلى البحيرة الداخلية :

ـ سأخبرهم بكل ما حدث .. بالكنز ، والقتل ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، اندفع (صفوت) نحوه كالمجنون ، وتعلَّق بعنقه ، صارخًا :

ـ لا .. لن أسمح لجنونك بنسف أحلامنا كلها .. لا ..

تشبث به (عاصم) ، وهو يصرخ :

ـ اتركنى .. اتركنى أيها الحقير .. لن أسمح لكما بالإفلات بكل هذا أبدًا .. أبدًا .

اشتبكا معًا فى قتال عنيف ، أمام عينى (دينا) ، اللتين اتسعتا فى ارتياع شديد ، وهى تطلق الصرخات المتتابعة المذعورة ..

لم تكن تتصوَّر أبدًا أن يبلغ الأمر هذا الحد ..

إنها تشعر بالقلق تجاه زوجها وضميره اليقظ منذ البداية ..

ولكنها لم تتصوَّر أبدًا أن يتخلَّى عنها ، فى موقف كهذا ..

أو أن يصر على إضاعة فرصة كهذه ..

فرصة لا تتكرَّر فى الجيل الواحد أبدًا ..

بل ربما فى التاريخ كله ..

سيضيعها بحماقته وتسرّعه ، وغبائه ..

سيضيع إلى الأبد فرصة الثراء ..

والنفوذ ..

والقوة ..

ليس هذا فحسب ، وإنما سيلقى بها وشريك عمره فى السجن أيضًا ..

قفز ذلك الخاطر إلى ذهنها ، فى نفس اللحظة التى تغلّب فيها (عاصم) على (صفوت) ، وأمسك معصمه بقوة ، صارخًا :

ـ سأرحل من هنا يا (صفوت) .. سأرحل دون أن يمكنكما منعى .. لن أسمح باستمرار هذا أبدًا .

صرخ (صفوت) ، وهو يقاتل فى استماتة :

ـ أيها المجنون .. إنك ستفسد كل شىء .. كل شىء .

صاح (عاصم) :

ـ ولكننى سأنقذ نفسى ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، هوت تلك الضربة على مؤخرة رأسه ..

ضربة قوية عنيفة ، ارتجّ معها كيانه كله ، فاستدار يحدّق فى صاحبتها ، بكل ذعر ، ودهشة ، واستنكار الدنيا ..

وللحظة واحدة ، التقت عيناه بعينى (دينا) ..

زوجته ..

وفى تلك اللحظة ، أدرك أنها امرأة أخرى ..

امرأة لم يعرفها من قبل قط ..

امرأة شريرة .. قاسية .. جشعة ..

وفى اللحظة التالية ، كانت هى تهوى على رأسه بضربة أكثر عنفًا ، بسبيكة الذهب التى تحملها ..

ثم بأخرى ..

وأخرى ..

وأخرى ..

كانت تصرخ بهستيريا عجيبة ، وهى تضرب ..

وتضرب ..

وتضرب ..

« كفى يا (دينا) .. كفى .. »

صرخ (صفوت) ، وهو يندفع نحوها ، ويمسك معصمها فى قوة ، متابعًا :

ـ لقد حطمت رأسه تمامًا .

اتسعت عيناها بارتياع مذعور ، وهى تحدّق فى جثة زوجها (عاصم) ، الذى سقط عند حافة البحيرة الداخلية ، وسط بركة من الدم ، تفجّرت من رأسه المحطّم ، ثم نقلت بصرها إلى سبيكة الذهب الملوثة بالدم فى يدها ، قبل أن تصرخ :

ـ لا .. لا .. لا .

ضمها (صفوت) إليه فى قوة ، هاتفًا :

ـ اهدئى .. اهدئى .. كان هذا حتميًا .. إما هو أو نحن .. لو أنه خرج من هنا حيًا لأفسد الأمر كله .

صرخت كالمجنونة :

ـ لقد قتلته .. قتلت زوجى .. قتلت (عاصم) .

هزّها فى عنف ، صائحًا :

ـ كل هذا من أجل الكنز .. لا تنسى .. من أجل الثروة الطائلة .. كل هذا من أجل كنز (قارون) .

ظلّت ترتجف بين ذراعيه لعشر دقائق على الأقل ، والدموع تتفجّر من عينيها بمنتهى العنف ، حتى قال هو فى صرامة :

ـ دعينا لا نضيع المزيد من الوقت .. الشمس ستشرق خلال أربع ساعات فحسب ، وينبغى أن نكون فى الطريق عندما تفعل .

أومأت برأسها مستسلمة ، وهى تمسح دموعها ، وتناولت الجوال الذى قدمه لها ، وراحت تملؤه بالذهب ، وهى تتحاشى النظر إلى جثة زوجها ، وتبذل كل جهدها لطرد ما حدث من ذهنها ..

وراح الجوال يمتلئ بالذهب والمجوهرات ..

ويمتلئ ..

ويمتلئ ..

وفى محاولة لطرد الموقف من رأسها ، سألت فى عصبية :

ـ هل تعتقد أنه بإمكاننا بيع كل هذا ؟! أعنى أنها تحف أثرية .

قال فى شراسة :

ـ تحف أو غير تحف .. الذهب هو الذهب .. إننا لا نريد أن تطاردنا الشرطة ، بتهمة تهريبه أو بيع الآثار .. سنذيب كل هذا ، ونصنع منه سبائك من الذهب فحسب .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، وهتف :

ـ ولو أردت رأيى ، فما حملناه حتى الآن يتجاوز الثلاثة ملايين كذهب خام فقط .

قالها ، وانطلقت من حلقه ضحكة ظافرة مدوية ..

ضحكة خُيِّل إليها أنها تتردَّد فى المكان بعنف ، حتى لتهزّ جدرانه أيضًا ، و ...

ولكن مهلاً ..

الجدران تهتز بالفعل ..

وبقوة ..

وبكل الذعر ، هتف (صفوت) :

ـ ربّاه ! إنه زلزال آخر .. أو تابع من توابع الزلزال الأوّل .. أسرعى يا (دينا) .. أسرعى .

وضع كل منهما منظار الغوص على عينيه ، وثبت منظم الأكسجين فى فمه ، ثم حملا جوالى الذهب ، ووثبا فى البحيرة الداخلية ، وراحا يغوصان فى الفجوة الكبيرة ، حتى بلغا ذلك الشق الأفقى ، وضوء مصباحيهما يشق الطريق ، والمياه تزداد عكارة فى شدّة ، والجدران ترتج بعنف أكبر ..

وأكبر ..

وأكبر ..

وبكل قوتهما وذعرهما ، راحا يسبحان ..

ويسبحان ..

ويسبحان ..

وعندما سلطا ضوء المصباحين على مخرج الشق ، كادت (دينا) تطلق صرخة رهيبة ، تحمل رعبًا لم يشعر به مخلوق حى من قبل ..

فقد كان جانبا الشق يقتربان من بعضهما ، مع الارتجاجات القوية ..

(صفوت) أيضًا رأى ذلك المشهد الرهيب ، فدفع جسده إلى الأمام بسرعة أكبر ..

وأكبر ..

ولكن جانبا الشق اقتربا بسرعة ..

والذهب الثقيل كان يمنعهما من الانطلاق ..

لذا ، ففى لحظة واحدة ، ودون اتفاق مسبق ، تخلّى كل منهما عن جوال الذهب ، وتركا الجوالين يهويان داخل النفق ، وهما يسبحان بكل قوتيهما نحو الشق الخارجى ..

ثم ارتجّ المكان بعنف أكبر بغتة ..

وتعكّرت المياه بشدّة ..

وانعدمت الرؤية تمامًا ..

ولكنهما سبحا أسرع ..

وأسرع ..

وأسرع ..

و ...

وفجأة ارتطما بجدار صخرى سميك خشن ..

وعادت الرؤية تتضح ..

وفى لحظة واحدة ، أدرك كلاهما ما حدث ..

وانهار قلب (صفوت) فى أعماقه ..

أما (دينا) ، فقد تركت منظم الأكسجين يسقط من بين شفتيها ، وهى تصرخ ، وتصرخ ، وتصرخ ، بكل رعب وهلع وارتياع وفزع الدنيا ، تحت الماء ..

لقد التقى جانبا الشق ..

وأغلق المكان عليهما تمامًا .. وإلى الأبد ..

مع الأفاعى ..

والكنز ، الذى سفكا من أجله الكثير من الدم ..

كنز (قارون) .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

قطرة حب (قصة قصيرة) ـــــ ٥

دليل (قصة قصيرة) ـــــ ٢٤

رجل العدالة :

نجمة الصباح (قصة كاملة) ـــــ ٣٩

المرأة مشكلة .. صنعها الرجل (دراسة) ـــــ ٧٨

حريتى (خواطر) ـــــ ٨٨

مذكرات طبيب - فى صعيد مصر الجوانى

الحلقة الثالثة ـــــ ٩٤

بشرة بيضاء (قصة قصيرة) ـــــ ١١٧

قصة العدد :

(قارون) ـــــ ١٣١

عزيزى القارئ (١) ـــــ ٢٥٥

عزيزى القارئ (٢) ـــــ ٢٨٠

مطابع
مطابع التقدم التجارية

الثمن فى مصر ٣٠١
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم